ABU ABDO ALBAGL

الأقوى

محمد زفزاف

قصص

مدونة ابو عبدو

محمد زفزاف

الأقوى

قصص

منشورات اتحاد الكتاب العرب

دمشق ـ ١٩٧٨

حقوق الطبع محفوظة

صمم الغلاف : نزيه أبو عفش

محتويات

* الرجال والبغال ٧
* جيران ١٧
* حمار الليل يضرب سكيرين ٢٢
* هياكل عظمية ٢٩
* العلبة والنجيمات ٣٧
* الحرف ٤٤
* خلف النافذة ٥٢
* أوهام ٦١
* جبال وخنازير برية ٧١
* الأقوى ٨٥
* المركز الصحي ٩٦

الرجال والبغال

جمعوا كل ما في القرية من البغال ذلك اليوم ، وتساءلنا لماذا البغال بالذات ؟ لكنهم عادوا وجمعوا كل الحمير • ولم يكن في امكان أحد أن يعرف لماذا جمعوا البغال والحمير • لكن الاجابة كانت عندهم وعندهم وحدهم • ففي نهاية الليل عادوا الينا بغالنا وحميرنا • وعندما وصلت البغال والحمير دق النفير فأفقنا على ذعر • واكتشفنا أن وراء سلسلة الحمير والبغال سلسلة أخرى من الحمير والبغال • ثم وراءها سلسلة من البشر الحفاة مثلنا وجاءوا من قرى أخرى في السهل • ثم وراءهم جنود مسلحون ، لكنهم قلة قليلة تعد على رؤوس الاصابع • وفي ذلك الوقت من الليل اختاروا اليافعين منا • وقالوا لنا ضعوا أياديكم فوق رؤوسكم ولا تحاولوا أن تحدثوا ضجة بأحذيتكم على الارض • الا أنهم كانوا مخطئين الى حد التفاهة ، اذ لم تكن لنا أحذية • فحتى البلاغي لا نضعها ، وضربني الاجنبي بمؤخرة بندقيته وقال لي اياك أن تفعل ذلك ، فأحنيت رأسي وأنا تحت ثقل النوم لأرى فيما اذا كنت أملك حذاء حقا • لكنه أعاد ضربي فاستقمت واستفقت • ومضى الى

الخلف وربما كان يكرر نفس الشيء مع الآخرين ، كانت الارض باردة والجو ممطرا فتحت أقدامنا جلطات صغيرة من الماء ٠ وعندما تتحرك البغال والحمير متعثرة ، تستطيع أن تسمع شلط شلق شلت ٠٠ وأحيانا يتطاير الماء تحت الجلباب فيصل حتى أماكن بين أفخاذنا فنشعر ببرودة الماء لأننا لم نكن نملك سراويل في ذلك الوقت ، سواء كانت فندريسية أو أوربية ٠ ثم يتقلص الجسد ويرتعد المرء في مكانه لأنه لا يستطيع أن يبدي حراكا ، فأدنى حركة تستوجب طلقة رصاصة ٠ على الانسان أن يتحمل البرودة وأن يمشي وفق السرعة التي يمشي بها الجميع ، وأحيانا يتوقف البغل الملعون أو الحمار ، فتكون أنت المسؤول وتنزل على صدرك أو كتفك ، أو عند الكلية ، ضربة قوية من كعب البندقية ٠

ظللنا للحظات واقفين فوق جلطات المياه ، وبعد ذلك دفعوا النساء والاطفال والشيوخ ٠ وأدخلوهم جميعا الى الاكواخ ، وقيل لنا بعربية رطنة : كل واحد منكم مكلف ببغل ٠ هل ترون تلك الجبال ؟ سوف نتفرق جماعات وفرقا ٠ وموعدنا في تلك الجبال ٠ ومن أراد منكم أن يتحرك أو يبدي أي تصرف غير لائق فرصاصة واحدة تكفيه ٠ ولقد كنت متيقنا أن أحدا منا لا يستطيع أن يتحرك ٠ لذلك فهذا التحذير لم يكن في محله ، أو ربما كان في محله ٠ قد يتحرك أحدنا دون حتى أن يعرف لماذا ، وتكون النتيجة رصاصة واحدة تكفيه ٠

كانت البغال محملة بالاسلحة ، لم نكن نعرف ذلك أول الامر٠ بل ان البغل الواحد كان يحمل مدفعين ٠ وكان مقررا أن نصعد تلك

المرتفعات الوعرة • ولم يكن أحد يركب بغله سوى الاجانب الذين خلفنا • فقد كانوا يحرسوننا اعتقادا منهم أن بامكان أحدنا أن يفر ويختفي في الاشجار الكثيفة التي كانت مبثوثة هنا وهناك ، الا أنني كنت متأكدا أن أي أحد لا يمكنه أن يجرؤ على فعل ذلك ، خصوصا وأن الجو بارد ، والمطر ينذر بالسقوط في كل لحظة • ثم ماذا يستطيع أحد أن يفعل أمام هؤلاء الاجانب ببنادقهم ومسدساتهم • كنا نسير في خط مستقيم وراء البغال • ولم تكن البغال متلاصقة • بل كانت هناك مسافة بين كل بغل وبغل • وكانوا قد أخذوا مجموعة أخرى من البغال في طرقات أخرى ، وربما ذهب مع تلك المجموعة أصدقاء لي من قريتنا • لم نكن نستطيع أن نلتفت الى اليمين أو الى اليسار • المهم فقط هو أن ننظر الى الامام وأن نسير وراء بغالنا نحو تلك الجبال • أما ما تحمله تلك البغال فلم يكن من مهمتنا أن نعرف • الا أننا عرفنا فيما بعد • كانت المدافع وبعض السلاسل الحديدية الكبيرة وأشياء أخرى • أما الى أين كنا نتجه ولماذا المدافع والبغال ؟ فقد عرفنا فيما بعد• ان بعض القبائل قد ثارت على السلطات ، وأن هذه الاسلحة ستتوجه لقمعهم ولقمع ثورتهم • وقد يعتقد المرء أن ذلك كان سهلا جدا ، بل على العكس ، لم يستطع الاجانب أن يجتازوا أحد الاودية قط الى يومنا هذا • فهناك ، خلف الصخور ، وتحتها ، وفي قلبها • كانت تنطلق رصاصات تردي العساكر الاخرى • وبعد ما استطاعت القبائل هزيمة الاجانب في الجبال ، نزل هؤلاء الينا ذات ليلة وذبحوا العديد منا ؟انتقاما لشرفهم واعتقادا منهم اننا

كنا نضرب من الخلف أو من السماء • لـذلك ذبحوا البعض منـا وبقروا بطون النساء وأخرجوا الاجنـة وانسحبوا بالمـرة دون أن يعودوا الى تلك المنطقة • وهاهـم اليوم يعودون • جمعوا البغال والرجال وصوبوا البنادق الى صدورنـا وظهورنـا • وكـان منهم البيض والسود • وقيل أن هؤلاء السود مسلمون مثلنـا ، يصلون ويصومون ويزكون • ولم نتعجب لكون المسلمين مثلهم • فقد كان في صفوف جيش الاجـانب مسلمـون معـروفون كـذلك • مشينـا واعتقدنا أن الشمس ستطلع بعد قليل ، لكنها لـم تطلع ، حتى شككنـا بأن الوقت لـم يكن فجرا ولكنـه منتصف الليل • البرد قارس والريح عاتيـة وعواء حيوانات كالذئاب يأتينـا من أودية الجبال • لم نكن نرى الجبال ولكنا نتصورها لأن الظلام شديد ولا وجود لضوء • وأحيانا أسمع حنحنة بغل وصوت ضربة من مؤخرته فأحسبها في ظهـر انسان • ولمـا لم يكن الانسان يصيح أو يتألم فمن الاكيد انها على ظهر بغل • كانت تلك القبائل قد عادت الى الثورة من جديد ، وسمعنا ذلك غير اننا لم نتأكد من شيء لأننـا في السهل • بل سمعل أن بعض رجالنا ـ رغم المراقبة الشديدة ـ قـد التحقوا بالجبال ، وهـم يحاربون الآن الى جانب القبائـل • وتساءلت لماذا يأخذوننا نحن بالرغم من أننا لـم نستعمل سلاحا قط في حياتنا • وسمعت الاجنبي من ورائي يقول بعربية واضحة : « امش يا بوركابي » • فأسرعت في المشي مخافة أن يهوي عليّ • كانت عربيته واضحة حتى شككت في كونه أجنبيا • وبعد ذلـك علمنا أن من الضباط من كان جزائريا • وكانت وجوههم في بياضها

وحمرتها تشبه وجوه الاجانب • أسرعت حتى التحقت ببغلي الذي لم أكن أدري ما الـذي أصابه فأخـذ يركض رغـم ثقل الحمل • وأمسكت بذيله حتى يجرني معـه • كانت البغال الاخرى لا تفعل مثله • وسمعنا هرير كلاب بعيدة أخذ يمتد ويمتد ويتردد صداه في كل مكان • واشتد الظلام حتى أني لم أعد أستطيع رؤية خيالات البغال الاخرى • وأصابني تعب شديد ، وغبطت الاجانب الـذين يتبعوننا راكبين • أما نحن فلم يكن لنا الحق في ذلك • وفكرت في الهرب ، لكن كيف يمكن • انهم يستطيعون أن يخرجوك حتى لو اختفيت في بطن أمك • وأخـذت البغال تصعد المرتفعات ، وبـدأ التعب الاكبر بالنسبة لنا • فتمسكت أكثر بذيل البغل ، وشعرت بأنه يجرني جراً ، وقلت انه لو لـم يكن لمـا استطعت أن أصعد المرتفع ، خصوصا بعد هذا المشي الطويل • كنا قد أدركنا الجبال اذن • ولا شك أن الاجانب سيفاجئون سـكـان القبائـل نائمـين فيفعلون بهم مثلمـا فعلوا بنـا في السابق • سيذبحون ويشرحون ويملحون • وأعتقد أنهم لا يستطيعون لأن هؤلاء مسلحون ، ونحن لـم نكن كـذلك • كانت البغال لا تـزال تصعد المرتفع • وشعرت بالبرد الشديد ينبع من الارض ويتسرب تحت الجلباب بين فخذي ، وينتشر في بطني وصدري وكل جسدي • ثم لـم يكن الامر كـذلك فقط بل أخذت الامطار تهطل ببطء ثم قويـة وعنيفـة • وأخذت البغال تنفصل عن بعضها تحت خيوط المطر ، وهي تكاد تسقط أو تتعثر مـن ثقل ما تحمل • وجاءنا أمـر بالتوقف واعتقدنا أول الامر أن ذلك اشفاق منهم علينا • فأغلبنا لـم يكن يرتدي لباسا

يقيه البرد والمطر ٠ وفكرت في حالة من يرتدي مجرد تشامير أو قشابة ٠ كيف يستطيع تحمل هذا الطقس اللعين ٠ لقد كنت من المحظوظين لأني أمتلك جلبابا ٠ تجمعت البغال والرجال تحت صخرة كبيرة عالية ٠ وبعيدا عنا فعلت باقي المجموعات نفس الشيء ٠ لم نكن نراها ، ولكن علمنا ذلك فيما بعد ٠ وأخذت الامطار تهطل بغزارة فحنحنت البغال وأشعل الاجنبي سيجارة وأخذ يدخن تحت الصخرة ، بعد أن اختار له مكانا يقيه من المطر٠٠ ثم قدم شخص وتحدث اليه ، ولم يكن من حقنا نحن أن نتحدث ٠ وسمعنا ذلك الشخص يقول لنا : « ان الشلوح سيقتلونكم عن آخركم ٠٠ لكنا لن ندع لهم الفرصة » ٠ كان مغربيا اذن ، ويتحدث لغة الاجانب بطلاقة ٠ وتساءلت أين أمكن لهؤلاء أن يتعلموا تلك اللغة ٠ ومن يدري فلربما كان أيضا شلحا ٠ ولكن الاجانب استطاعوا أن يجعلوا منه انسانا آخر ، أجنبيا مثلهم ٠ وفكرت في أن أجلس ، غير أني خفت من الأجنبي ، ولم يستطع احدنا أن يفعل ٠ واخذ بغلان يتحركان ويضربان الارض بحوافرهما ٠ كانت المرحومة والدتي تقول : (اذا حفر بغل ارضا بحافره ، فاعلم أن احد اقربائك قد مات) ٠ وخفت أن يكون الموت قد اختطف أحدا من عيلتي ٠ اصبح الجلباب ملتصقا بجسدي ، ولم يشفق الأجنبي علينا ٠ التصقت بالبغل فتزحزح وابتعد عني ٠ ثم عاد الرجل الى الأجنبي وتحدث اليه بلغته ٠ فوقف الأجنبي بسرعة خاطفة ٠ وسمعنا الجندي يقول لنا : « عليكم ان تستعدوا ٠ لم نفاجئهم كما كنا نتوقع » ٠ وتساءلت : كيف بامكاننا أن نستعد لقتل أخوة لنا

في الدين ٠ ثم اننا لسنا مدربين على استعمال السلاح ٠ ومشى الجندي مسرعا في الظلام حتى لم نعد نرى من خياله شيئا ٠ في حين اصبح الأجنبي المكلف بنا يدور على نفسه ، ويتحدث بلغته ٠ فتساءلت : هل يكون قد أصيب بجنون ؟ أخذ يصرخ في وجهي ، ودفعني دفعة قوية واشار الى البغل فرأيت جاري يرتعد من البرد وكنت اعرفه٠كنا حوالي ستة اشخاص بالاضافة الى الأجنبي والغالب ان كل مجموعة كانت تتكون من هذا العدد ٠ ولما لم أفهم ماقيل لي ، عاد الأجنبي الي مرة أخرى وقال « كوشون ! » علمت فيما بعد أنها تعني خنزير٠ووجه الي صفعة قوية ثم رفسة بقدمه على بطني ٠ تألمت وسكت ٠ كانت الامطار ماتزال تهطل قوية وعنيفة ٠ واخيرا امرنا بأن نصعد المرتفع من جديد بغلا فرجلا ورجلا فبغلا ٠ وجدنا في الظلا مكوخا صغيرا مطفأ الضوء له باب مفتوح اقترب منه الاجنبي وصوب رشاشه٠وقال لاحدنا أن يدخل لكي يخرج من فيه ٠ فدخل الرجل وخرج ٠ الكوخ خال من أي أثر لانسان ٠ ولم يصدق الأجنبي ماقيل له ، فصوب ضوء بطارية داخل الكوخ ٠ ولم يكن بداخله احد ٠ رأينا ذلك بانفسنا ٠ ثم امرنا بالاستمرار في الصعود مشينا منهكين ٠ وفجأة سمعنا طلقات الرصاص فحرنت البغال وحنحنت ثم وقفت في أمكنتها ٠ كان سكان القبائل اذن يقظين ٠ ثم امرنا الأجنبي بأن نضرب البغال حتى تتمكن من الانطلاق من جديد٠لكن لم يكن لاحدنا عصا٠أخذنا نضربها بأيدينا فلم تتحرك ٠ وسكت الرصاص ثم دوى من جديد ٠ ورددت صداه كل الأودية وكل الجبال وكانت الاصوات تأتينا ممزوجة بالريح

والمطر • ومن وسط الظلام انضم الينا جنديان آخران وأخذا يضربان بمؤخرة بندقيتهما البغال ، فتحركت بصعوبة • وبعد أن نفذا مهمتهما عادا من حيث جاءا • وسمعت أحدهما يتعثر ويسقط أرضا ، أو هكذا خيل لي • واشتدت طلقات الرصاص فخفت على نفسي • وقال الأجنبي أن علينا أن نمشي بمحاذاة الصخور حتى نتقي الرصاص • لكنه وهو يقول ذلك ، مرت فوق رؤوسنا رصاصات كثيرة ، وخيل لي أن شيئا كالدم يتدفق من جسد البغل • كان دما بالفعل • لقد أصابته رصاصة أو رصاصات كثيرة • احتميت به • وسمعت الأجنبي يئن • وكانت البغال الاخرى قد تفرقت في الظلام والتصقت بصخور الجبل ، في حين لم يعد للرجال الاخرين أثر • وتصورت انهم فروا من غير شك • كان الأجنبي ممددا بالقرب مني تحت صخرة صغيرة ناتئة ، وأطلق رصاصات ثم عاوده الالم ، لقد كان جريحا ، ابتعدت عنه بخطوات الى الخلف ، لكنه امرني بأن أقف في مكاني • لم أفهم عربيته أول الامر • وقفت وقد صوب رشاشه نحو صدري • ثم ارخى الرشاش من جديد • كان البغل بالقرب مني • مددت يدي الى الشواري وأخذت اتحسس مافيه • وعندما وقعت على قطعة من الحديد خفيفة سحبتها وأخفيتها وراء ظهري • وكان الأجنبي يتألم ويصرخ تحت المطر : « تعال ياكوشون ، أين صدقاؤك؟ أقترب •• » أخذت أقترب منه في الظلام لم يكن لاصدقائي وجود • لقد نجوا بأنفسهم • حتى البغال الاخرى اختفت تحت وابل الرصاص والمطر • لم يبق هناك سوى بغلي وبغل آخر في الاعلى • وشعرت بالدم يغلي في رسي ، وبغضب لاحد

له ٠ وكانت قطعة الحديد ترتعد في يدي ٠ وأردت أن أهوى بها عليه غير انني ترددت ٠ وأخذت اتراجع قليلا الى الخلف ٠ وكان البغل قد انحدر الى تحت ٠ لكن صوت الأجنبي أمرني بالوقوف مرة أخرى وبالاقتراب منه ٠ لم يصوب رشاشه الي اول الامر ٠ثم وجهه نحوي وسمعته يطلق صرخة قوية هذه المرة ٠ لقد اصابته رصاصة أخرى من غير شك ٠ وأخذت أرتعد من الخوف فربما أصابتني رصاصة طائشة ٠ ألقيت قطعة الحديد من يدي ، ودون أن أستمع لاوامره وجدتني أركض في المنحدر ٠ ثم اصطدمت ببغل ممدد في الطريق، وسقطت على الأرض ٠ كان الرصاص مايزال يئز في الفضاء ، من جهة ٠ وقفت في خوف وجريت ٠ ولم أكن أعرف الى أين ٠ وسمعت صوتا يناديني أن أقف ٠ كان هذه المرة بالشلحة ٠ لكني لم أقف ٠ وأطلقت علي رصاصة فوقفت وانقض عليّ رجل ملفوف في جلابة قصيرة فوقها برنوس ٠ ثم التحق به رجل آخر ٠ وقال لي الرجل الاول :

ـ هل أنت معهم ياخائن ؟

ـ لا والله ٠ أنا لست أجنبيا ، لقد أخذونا بالرغم منا ٠ اني لا أعرف حتى كيف أستعمل السلاح ٠

ـ اسكت ٠

ـ لقد أخذوا بغالنا وذبحونا وقتلونا ٠

لكن الرجل الثاني قال :

ـ اطلق سراحه ٠ انه ليس منهم ٠

غير أن الرجل الاول لم يستمع اليه بل أمسك بي وقادني الى شجرة قصيرة وربطني الى جذعها وانا مستسلم له ٠ وقال لي ان علي أن أبقى هكذا حتى يعودا الي ٠ لكنهما لم يعودا ٠ ومن يدري فربما يكونان قد ماتا ٠ وعندما طلع الفجر لم أعد أسمع أزيز الرصاص وحاولت أن أقدر أي مكان أوجد فيه لكني لم أستطع كان الهدوء يشمل المكان والارض مبتلة والمطر قد كف عن السقوط فككت الرباط بصعوبة كبيرة وانطلقت منهكا أبحث عن طريق توصلني الى القرية، كانت تلك معركة غنمت فيها القبائل المدافع والسلاح وكل شيء ٠ واخذوا حتى البغال ٠ وبالرغم من أنهم مغاربة مسلمون مثلنا لم يردوا لنا بغالنا حتى اليوم ٠

* * *

جيران

قال محسوس لصديقه :

ـ كانت قوية وعيناها تشعان بالحياة ٠

ردّ لطيف :

ـ ومع ذلك فقد ماتت ٠ كثيرا مايخوننا الحدس أو التخمين ٠

ـ كانت تبدو أقوى من الموت ٠

ـ اقوى من الموت ! انه تعبير بلاغي ٠ ليس هناك أحد أقوى من الموت حتى الشيطان ٠

ـ ومن أدرانا أن هناك موتا ؟

ـ على كل حال فهو حقيقة ٠ انه غياب شخص عن حياتنا ٠ لايستطيع أن يتحدث الينا ٠ لايستطيع أن يحبنا ٠ لايستطيع أن يحقد علينا ٠

أدار محسوس زر المذياع ليخفض من الصوت ٠ لغط الصوت يأتيهما بشكل ضجيج غير مفهوم خلف الجدار ٠ انه لغط المعزين من غير شك ٠ تأكد لهما الآن أنها وأخاها لم يكونا معزولين عن

العالم ٠ بل كانت لهما علاقات كثيرة ٠ حقاً ، لقد كانا منطويين على نفسيهما ٠ حتى ان بعض الناس تحدثوا عن علاقة مشبوهة بينهما ٠ بعضهم كان يعتقد أنهما زوجان ٠

وقال محسوس :

ـ عندما كنت أقول لها بونجور لم تكن ترد ٠ اعتقدت أول الأمر أنها صماء ٠ لكن الواقع ، أنها كانت شديدة الخجل غير أنه كان في عينيها بريق ٠ هذا البريق وحده هو الذي أجابني مراراً ٠

ـ أما أنا فقد أجابني مرارا ٠ ظننت أنها ستدق علينا الباب ذات مساء عندما يكون أخوها قد خرج الى الحانة المجاورة لشرب بيرتين كما هي عادته كل مساء ٠

أخرج لطيف سيجارة ٠ تردد في اشعالها ٠ نظر الى الجدار ٠ بدا كما لو كان يتتبع الموسيقى الهادئة المنبعثة من المذياع ٠ كان غائبا عن العالم ٠ تصورها وهي تغسل الأطباق القذرة المكدسة في المطبخ ٠ أو تصفف الكتب المبعثرة على البلاط ٠ نظر الى الكتب والمجلات وهي ملقاة أرضاً ٠لم يكونا يملكان مكتبة ،بل كانا يملكان اهمالاً وكسلاً لاحدّ لهما ٠ موظفا مبتدئان يسكنان غرفة واحدة ويقتصدان ماأمكن ٠ لكنهما في الواقع لم يقتصدا شيئاً لحدّ الآن٠

أشعل لطيف سيجارته ٠٠ في حين كان محسوس وهو ممدد على بطنه يتصفح احدى المجلات ويتتبع اللغط خلف الجدار ، قرب الباب ٠

قال لطيف :

ـ كم كانت جميلة ! هل تعرف أني أحبها وأن ذلك لم يخطر لي على بال في السابق ٠

أجاب محسوس :

ـ هل أنت أحمق ؟ رجل حي يحب أمرأة ميتة !

ـ أعتقد أنها لم تمت ٠ اني أتصورهـا الآن وهي تبتسـم ٠ أتصور عينيها تشعان ٠

ـ نستطيع أن نتصور ذلك جميعا ٠ لكننا لانستطيع أن نحب الأموات ٠ أقصد ذلك الحب الجسدي ٠

ـ انك لاتفهمني ٠ ليس ضروريا أن يكون الحب مقترنـا بالجسد ٠

ـ من يبتسم ؟ من يخجل ؟ من تبرق عيناه ؟ هل هي الآلهـة أم البشر ؟

طوى محسوس المجلـة ٠ وقف وأطل مـن النافـذة ٠ طلب من لطيف سيجارة ٠ غادر الغرفة الى التواليت ٠ أتت من هناك رائحة قذارة ٠ تشمم ذلك بتقزز من كوة التواليت سمع الناس يقدمون التعازي ٠ سمع رجلاً يقول لأخي الفتاة :

ـ لو بقي أبوك وأمك على قيد الحياة لماتا من أجلها ٠ كانـا يحبانها كثيرا ٠ كانا يحبانكما كثيرا ٠

ـ فهم محسوس أنهما يعيشان بلا أ بولا أم ٠ وتخيل أن دور

الشاب قريب كذلك هل تكون الأسرة قد نزلت بها لعنة الموت؟زرّ سرواله وعاد ليقول للطيف ٠

ـ هل تعرف يالطيف أن والديهما قد ماتا من زمان ؟

ـ وبعـــد ؟

ـ سوف يأتي دور الشباب كذلك ٠

ـ متى كنت تتنبأ بالغيب ؟ هل تستطيع أن تقول لي متى ستموت أنت ؟ اسمع ٠ لقد خطرت لي فكرة ٠ سنذهب لنعزيه في وفـاة أختـه ٠

ـ ولكننا لانعرفه ٠ ليست لنا علاقة بـه ٠

ـ أنه جارنا ٠

ـ فكر محسوس قليلاً ٠ دار على نفسه في الغرفة ٠ فكر قليلاً ثـم قـال :

ـ ياالله ! لنذهب ٠

بدا لهمـا الباب مفتوحـاً على بعـد أربعـة أمتار مـن باب غرفتهما ارتفع اللغط أكثـر ٠ مشى محسوس في المقدمـة وتبعه لطيف بخطوات مترددة ٠ اقتحمـا الغرفـة ٠ هناك مجموعـة من المعزين ٠ لم ينتبه لهما أحمد ٠ ظلا واقفين مشدوهين٠ قال لطيف :

ـ اني لا أعرف كيف أعزي ٠ اذهب أنت الأول ٠

لاح لهما الشاب وقد بدا عليه تعب كبير ٠ كـان يتحدث الى شخص متقدم في السن ، يبدو أنه هو الذي سمع محسوس حديثه

من كوة التواليت ٠ رآهما الشاب وتعرف عليهما ٠ وقف متخاذلا واتجه نحوهما ٠ مدّ محسوس يده وصافحه ثم عانقه وهو يقول في صوت خافت :

ـ البركة في رأسك ٠ نحن جيران ٠ هل تعرفت علينا ؟

أجاب الشاب بصوت هادىء :

ـ نعم ٠

ومدّ يده ليصافح لطيف وتعانقا ٠ اغرورقت عينا لطيف بالدموع ٠ وبدت له الابتسامة والعينان المشعتان ٠ ارتجف ٠ لم يعرف ما يقول ٠ لكنه بذل مجهوداً قوياً حتى تخرج الكلمات من فمه :

ـ البركة في رأسك ٠ أختك كانت ٠٠٠ اني ، اني ٠٠ أحبها ٠

أجاب الشاب بهدوئه المعتاد :

ـ شكراً ٠ لقد كانت طيبة ٠ انها تستحق ذلك وأكثر ٠

رأى الشاب معزياً آخر ، اتجه نحوه ٠ اضطرب لطيف ٠ تصبب عرق قوي من جسده ٠ أراد أن يتحرك فلم تقو رجلاه على المشي ٠ ثم تهاوى على أقرب كرسي اليه ٠

* * *

حمار الليل يضرب سكيرين

توقف بنسليمان في الظلام ، ومد يده ليمسك بذراع آيت موح كي يجنبه السقوط في حفرة أمامه . كان هذا الاخير الى حد ما أعشى . ورغم ان الظلام لم يكن كثيفا لامتداد ضوء المصابيح البعيدة اليه ، فان آيت موح لم يستطع أن يرى شيئا . ولو كان الجدار القصير الموجود قبالتهما مطليا بلون آخر غير الابيض لما استطاع أن يراه .

قال بنسليمان :

ـ هل ضربك حمار الليل ؟ انك لم تعد ترى ماأمامك .

ـ أنت تعرف أن بصري ضعيف . لماذا تتكلم مثل والدتي ؟ هل رأيت في حياتك حمار الليل هذا الذي تتحدث عنه ؟ .

قال بنسليمان :

ـ لايهم . رد بالك . لقد اقتربنا من السور الآن . أعطيني الزجاجتين حتى لاتتعثر فتكسرهما .

تحرك آيت موح قليلا الى الوراء ، وحاول أن ينظر يمينا

ويساراً ثم مد يده الى حزامه واخرج زجاجتي النبيذ اللتين اصبحتا دافئتين مابين سروالـه ولحمـه • تنـاول بنسـليمان الزجـاجتين فاصطدمتا ببعضهما • وخشي أن تتكسرا • مشى بخطوات حذرة نحو السور القصير • ولما اقترب منه كان آيت موح مايزال يفتش عن شيء في جيوبه • وضع بنسليمان الزجاجتين فوق السور ، ثـم اعتمد بكفيه وقفز الى فوق ، لكن الأسلاك الشائكة آلمت جسـده وأصدرت زنيناً خفيفاً • ضغط على سلك بيده وحاول أن يدخل جسده بين سلكين ، متجنبا الا يمزق السلك الفوقي ثيابه • نجح في ذلك وتدلى الى تحت ، ثم استعاد الزجاجتين ، وذهب بالقرب من احدى عربات السلع المنتشرة فوق خطوط السكة التي تشكل شبكة على هذا الجانب من أرض الميناء • وقف ينتظـر آيت مـوح وهو يلهث • وظهر رأس هذا الأخير في الضوء الخافت للمصابيح ، ثـم ظهر جسده كله فوق السور ، وقال بنسليمان لابد أن هذا الأعشى سيترك كل ثيابه معلقة على تلك الأسلاك ذات الرؤوس المدببـة الحادة • لم يقع شيء من هذا • قفز آيت موح وتوجه مباشرة الى حيث ينتصب جسد رفيقه • ظلا صامتين وهما متقابلان • كانت أفكار خاصة تدور في رأس كل واحد منهما • المهم انهما يشعران الآن باطمئنان ، فهما في مكان مريح وأمين • لن يضايقهما شرطي • وقال آيت موح :

ـ اعتقد اننا نستطيع أن نشرب الآن بحرية •

قال بنسليمان :

ـ لاتستطيع تقدير مـدى حسدي لأولئـك الذين يشربون في

البارات الآن ، انهم يستطيعون ان يبصقوا في وجه أي شرطي ٠

ـ لو كنت غنيا مثلهم لاستطعت ان تفعل نفس الشيء ٠ ان ثمن زجاجتين في الخلاء يعادل ثمن ثلاثة كؤوس ٠ وانت لاتسكر بكأس ونصف ٠

لم يكن بنسليمان يستمع لآيت موح ، لأنه اصبح الآن خلف عربة مكعبة سوداء ، مجوفة من فوق٠سمع آيت موح شرشرة البول ففتح أزرار سرواله وفعل مثل بنسليمان ٠ رائحة البول اختلطت برائحة نفايات السفن التجارية ، ومراكب الصيد المتجمعة في جناح آخر من المرسى ٠ الأضواء القليلة المنبعثة من الصواري والكوات تنعكس على الماء ، لكن الضوء لم يكن ليصل الى هنا ، فالعربات المنتشرة فوق شبكة الخطوط الحديدية المتداخلة تمنع من وصول الضوء الى المكان ٠ واختار بنسليمان بقعة نبت فيها حشيش صلب ، بالقرب من الماء ، وجلس هناك٠تبعه آيت موح وهو يتكلم بصوت حاد وغير مفهوم ، جلس بجانبه واخرج من جيبه علبة ياوورت واخذا يصبان لبعضهما فيها وقال بنسليمان :

ـ الآن نستطيع ان ننام بحرية هنا ٠

ـ يجب ان نسكر أولا حتى ندفأ ٠

وقال بنسليمان :

ـ لو كان عندنا بيت !

رد آيت موح :

ـ لاتفكر في هذا ٠ لم يكن لنا بيت اطلاقا ولايمكن أن يكون ٠

ـ لاشيء بمستحيل • في صحتك !

وافرغ علبة الياوورت في جوفه • تقزز ومسح فمه بظهر كفه • كانت نسمات خفيفة تهب من جهة البحر • وسمع عن قريب صوت اصطخاب الأمواج ، وقهقهة بعض البحارة المخمورين • ثم غطى على هذه الأصوات جميعاً صفير قطار قادم • وقال آيت موح :

ـ اتمنى ان لاتداهمنا الشرطة هنا •

ـ لاتخف • كن مستعدا لشهرين سجناً على الاقل •

ـ أخشى ذلك • لكن الحياة تمضي رتيبة بلا سجن •

ـ بالنسبة لامثالنا ، السجن راحة وانفتاح •

ـ يمكن أن يكون ذلك بالنسبة لك وحدك •

ـ اسكت ياحمار •

ـ الحمارة هيْ أمك •• اسكب كأسا أخرى •

صوت القطار يقترب منهما •وفكر آيت موح في أمه التي تكرر عليه دائما مايفعل به صوت حمار الليل • انه يضلله ليلا ، فيضيع الطريق المؤدية الى كوخهما القصديري بفعل السكر • لكن والدته لم تكن تعرف أنه يشرب ذلك الشيء الحرام ، تعتقد فقط ان حمار الليل متمكن منه ، وحاولت مرارا ان تكتب له تميمة عند كثير من الفقهاء ، لكنها لم تفلح • فقد ظل حمار الليل يلازمه ، وأحيانا حتى النهار • وكلما التحق بعمل ، سرعان مايطرد منه •

عندما سمع آيت موح صفير القطار للمرة الاخيرة • قال لبنسليمان :

- سوف يكتشفوننا ٠
- ان رجال الديوانة نائمون ٠
- هل تعتقد ذلك ؟
- وحتى رجال الشرطة ٠
- والمسافرون ؟
- ان هذا القطار اعمى خاص بالسلع ٠ اشرب ٠

وافرغ له زجاجة النبيذ الرخيص في علبة الياوورت :

- في صحة شاربي البارات ٠
- في صحتك ٠

كانت الساعة حوالي الحادية عشرة ليلا ٠ والسماء تنذر بصحو حقيقي غدا ٠ لكن الظلام مع ذلك منتشر ، لاتبدده سوى تلك المصابيح القليلة الباهتة المنتشرة خلف السور ٠ وسمع بنسليمان موسيقى منبعثة من مكان ما،تبين فيما بعد انها قادمة من جهة المراكب ٠ كانت ترتفع وتنخفض لتصمت في أغلب الاحيان ٠ تصور أن سكيرا مثلهما هو الذي يعالج جهاز الراديو ٠

مر القطار بسرعة دون ان يحفل بهما ٠ وسمعاه يتوقف على بعد كيلو متر تقريبا منهما ٠ وسمعا أيضا ، على الاثر ، أصواتاً آدمية ضاعت في الليل ٠ وقف آيت موح ، وأخذ يبول بالقرب من رفيقه ، نهره الآخر ، وطلب منه أن يبول جالسا لان الكلب وحده هو الذي يفعل ذلك وهو واقف لكن الآخر لم ينتبه له ، وزرّ بنطلونه ٠

وعاد ليقول :

ـ انه دوري ، هات كأساً أخرى ٠

أفرغ بنسليمان من الزجاجة الثانية حتى اندلقت الخمر على علبة الياوورت ، وعلى أصابع رفيقه ٠ ثم شرب آيت موح نصيبه دفعة واحدة ٠ ودندن بلحن بربري مرددا بعض الكلمات التي لم يفهمها بنسليمان ٠ مشى بعيدا ، وأخذ يتسلق العربة المجوفة السوداء الرابضة على بعد أمتار منهما ، فسمع صوت طنين تردد في الليل ٠ صاح بنسليمان :

ـ ياكلب ! هل ضربك حمار الليل ٠ انهم سيكتشفوننا ٠ دعنا نسكر ٠

افرغ لنفسه في علبة الياوورت ٠ وتلذذ بالجرعة الاولى ٠ثم دلق كل شيء في جوفه٠أخرج سيجارة رخيصة جدا من نوع الفافوريت واشعلها ٠ اتكأ على كوعه الأيسر ، وصرخ في وجه آيت موح حتى يكف عن سكره وعربدته ٠ لكن آيت مو ح لم يكن يستمع له ٠ مشى نحو المرفأ ، ووقف يتأمل الضوء المنبعث من مراكب الصيد ، ومن البواخر ، والمنعكس على صفحة الماء المتلألأ ٠٠ وتصور الاسماك وهي تقفز فوق سطح الماء ٠ فكر ان يتراجع خطوتين الى الوراء ، ثم يقفز الى المركب الذي أمامه،حتى ينهي سكرته مع الصيادين٠ وعندما تراجع الى الخلف اصطدم بجسمين آدميين ٠ أمسكاه من ذراعيه ٠

ـ مع اي رايس تشتغل ؟

أخذ يتمتم ٠

ـ هات ورقة التعريف ٠

أخذ يتمتم أيضا ٠

كان الرجـلان ينتميان الى عمالـة البيضاء ٠ أخرج احدهمـا شيئا من جيبه لم ينتبه آيت موح في الظلام ٠ أخذ يصرخ :

ـ لست أنا ٠ أنه هو ٠٠

رفع بنسليمان عينيه في الظلام ورأى ثلاثة اشباح تتدافع ٠ ترك ما تبقى في الزجاجة وجرى نحو السور ٠ تسلقه بصعوبة ٠ وعندما وضع كفه على سلك شائك انغرزت احدى أسنانه فيها ٠ تحمل كل شيء ، وبذل مجهودا للنجاة بنفسه ٠ ادخل جسده بـين سلكين فعلقت بعض الأسنان بثيابه ٠ لم يهتم بذلك ٠ هوى الى الارض تاركاً بعض الخرق معلقة على السور ٠٠ سقط على كفيه وركبتيه ٠ تنفس بسرعة وبعمق ٠ وعندما حاول أن يقف وجد ثلاثة أشخاص بثيابهم المتشابهة وقبعاتهم المستديرة يحيطون به ، وقد وضع احدهم يديه على خاصرتيه ، وقد أفرج ساقاه ٠

* * *

هياكل عظمية

قالت الزوجة :

ستأخذ ضربة شمس ٠

وقالت الحماة ٠ وهي تحاول أن تمضغ سندويش البطاطس المقلية بما تبقى لها من أسنان :

ـ سيحصل ذلك اذا لم يضع طربوشه فوق رأسه ٠

كانت حرارة الشمس قوية بالفعل ٠ غير أنه ليس متأكدا من أن ذلك سيحصل له ٠ لأنه لم يسبق له أن تعرض لضربة شمس ٠ أو هو لايذكر أنه تعرض لها ذات يوم ٠

حرك قدميه الخارجين عن مستطيل الفوطة فوق الرمل ٠ وشعر ببعض الحبات تدغدغ مابين أصابعهما ٠ نظـر الى الحماة وهي تمديدها النحيلة ذات العروق البارزة الى زجاجة « كوكا » المثلجة أعجبه أن يتأمل الطريقه التي تصب بها السائل الأسود في فمها ٠ أمعن في الأمل٠تخيل السائل مثل أفعى سوداء صغيرة طرية الجسد

تنسرب في حجر • تخيله أيضا خيطا أسود • تخيله زفتا ثم لم يعد يتخيل أي شيء اختلطت صورة الخيط بالزفت بالأفعى بالسائل • ابتسم وحرك اطار نظارتيه فوق أرنبة أنفه • كررت الزوجة :

ـ ستتعرض لضربة شمس •

قال : ـ الجو لطيف •

لم يضف شيئا • ولاشعوريا أخذ ينظر الى المنديل المشدود فوق رأسها • ألوانه زاهية • كثيرة • تشكل مساحات هندسية متقاربة ومتباعدة • ومتداخلة أحيانا فيما بينها • وعندما يتحرك الرأس تتغير الألوان• تفقد بعضا من نوعيتها تحت أشعة الشمس قذفت فتاة مراهقة قدميه بالكرة • لم يتحرك • ولم يحاول أن يرد الكرة • ومن تحت النظارة دائما تشهى ذلك التناسق البرىء لجسدها • نقل بصره الى زوجته • فلاحظ أن ملامح وجهها التي يعرفها تغيرت • اخذت أبعادا اخرى • استطال الوجه وبرز الانف واتسعت العينان حتى أصبحتا مثل كهفين مظلمين عميقين • وسمعها تقول :

ـ لقد كثرت المراهقات • أنظر كم هي قبيحة !

لكن الحماة لم تهتم لما يدور حولها ابتلعت آخر قطعة من الطاطس وأردفتها بآخر جرعة • وعندما أنهت المضغ أحدثت أصواتا صادرة مابين اللسان واللهاة • وقفت ومشت حافيه فوق الرمل الحار تجاه بعض القياطين التي تتجمع تحتها نساء مثلما يهيئن الشاي أو يأكلن باستمرار • أو يغتبن جاراتهن : أو يتحدثن

فيما لايعنيهن • مشت بتباطؤ وحذر شديدين وهي تحاول انـزال ثوبها الخفيف الذي تلعب به الريح • وبدت له هيكلا عظمياً نحيفاً تخيل عظامها تطقطق• ثم هي تنفك•وتنشر بيضاء أو مدماة على الرمل • وأزال النظارتين • وتابع بعينيه الفتاة التي تلعب الكرة • جسد متناسق حقا : بريء • يتطاير شعرها الاسود الاملس وينتشر مثل مروحة خلفها وحول رأسها • ويندلق الى الأمام عندما تنحني• يندلق بشكل عمودي ثم يستعيد وضـعه • اتى شاب مـن خلفها وصب حفنة رمل على ظهرها • ثم دفعها في مكان من جسدها يدل على أنها تحرم عليه شرعا • وكانت الزوجة تحاول احكام شـد المنديل على أرسها • فتحت جرابا خلفهـا • وأخـرجت نظارتـين شمسيتين ووضعتهما ربما لكي تخفي اتجاه نظراتها تلصصت أول الأمر على زوجها • ثم أخذت تتابع الفتاة • ومن مكان ما أخرجت كمية من الحمص المقلي وأخذت تلقي بالواحدة تلو الأخرى في فمها وهي تمضغ ببطء•مستعينة بلسانها الذي ينفخ الحنك بعد الحنك طاردت الفتاة الشاب المحرم عليها • غير أنه التجأ الى الماء ورشها بسرعـة فتراجعت • فاجأتهـا الكرة قادمة مـن لامكان • صدمتها فسقطت جالسة على الرمل • لم تتحرك وظلت تـذري الرمل مـن حولها وهو تقول كلاماً يبدو أنه احتجاج • أمعن هو في تأملها أكثر• وأمعنت الزوجة كذلك في تأمـل حـركات الفتاة وحقـدت عليها • خصوصا عندما رأت صدرها وقد اندفع الى الأمام • كانت الفتاة قد كونت بنصفها الأعلى وذراعيها المتصلبين المغروسين من الخلف في الرمل مثلثاً ذا نتوء • في زاويته العليا رأس يتحرك في كل اتجاه•

تصدر عنه ضحكات استهتار أو براءة ٠ لم يتكلم ٠ بـل فكر أن الزوجة تتابع كل شيء حتى مايجري داخل رأسه ٠ ولم يكن يعرف بالضبط مايدور برأسه ٠ انه فقط ينظر الى الماء والى الكرة والى الفتاة٠ العالم الآخر٠ حتى زوجته ربما لم يكن يراها ٠ انها حاضرة ويمكنها أن تلمس مثل هذه الفوطة أو هاتين النظارتين ٠ لكنـه لايراها ٠ وربما أحست أنه لايراها بالفعل٠وضعت يدها على كتفها ثم على عنقه ٠ مـرت برؤوس أصابعهـا على بعض الشـعيرات الملساء في جسده ٠ ثم قال بدون أن ينتبه :

ـ لماذا لاتسبحين ؟

ـ أريد فقط جمع الأعشاب هناك ٠

وأشارت جهة البحر ٠

ـ أنظركم هي كثيرة ! وطافية فوق الماء !

ـ وأيضا فوق الأرض٠الأمواج تخلفها ثم تنسحب الى الوراء٠

بساط أخضر من الاعشاب البحرية يتحرك فوق الماء ٠ يتوسط خضرته سواد نفايات السفن ٠ كانت الخضرة مثـل شبكة ممزقة في كثـير من الاماكن ٠ غير متصلة بالخضرة ٠ التي تكومت علـى الارض وغاصت في الرمل المبتل ٠ واحتضنت قواقع صغيرة مجوفة لامعـة ٠ كم كان معجباً بتلك القواقع ! معجباً بغطـاء الحلزونات البحرية ٠ ومعجباً أيضا بأشكال أخرى هي من غير شـك بيـوت لحيوانات أخرى ماتت أو ابتلعتها أسماك كبيرة ٠ كم كـان يخـاف أيضا الاسماك الكبيرة التي لا يعرف من نوعها الا مايراه مصورا في الكتب أو المجلات ٠ (هذا ٠ الوهم : يسبح ثم يغطس ٠ ثم تتعطل

عضلاته ٠ يهـوي الى القـاع فيصبح بسهولة فريسة لمثـل تلـك الاسماك ،انها أبشع ميتة خشيها طيلة حياته)٠

وقفت الفتاة واستأنفت اللعب بالكرة ٠ تحركت جهة المـاء حتى علقت الاعشاب الخضراء بقدميهـا فطوحت بهـا بعيدا ٠ استمر في النظر اليها ٠ لم يحدد أي موقف عاطفي منها ٠ وأزاحت الزوجة النظارتين عن عينيها وتظاهرت بمسحهما ٠ وقالت وهي لا تنظر اليه :

ـ اذهب لتسبح ٠
ـ ان أمك ستضيع المكان ، الى أين ذهبت ؟
ـ لا تهتم بها ستعود على كل حال ٠

سكت وطرد بعض الهوام بقدميه ٠ طنت ذبابة حول رأسه ٠ وابتعد الطنين شيئا فشيئا ٠ وعادت اليه صورة السائل الاسود وهـو يتحول بالتدريج بين التراقي والجوف لتمحي الصورة مـن جديد ٠ أو أنها لـم تمح نهائيـا ٠ بل استمر التحول ٠ اندمجت الصورة الاولى في صورة العظام وهي وهي تطقطق وتتفكك لتنشر بيضاء أو مدماة فوق الرمل ٠ لكن الفتاة قذفت العظام بالكـرة ، فتحولت الكـرة الى عظم ، بل الى جمجمـة ٠ ذهبت الفتاة الى الجمجمة وأمسكتها بيديها وألقت بها الى الشاب المحرم عليهـا شرعاً ٠ لقد أصبحت الفتاة من آكلي لحوم البشر ، الذين قرأ عنهم كثيرا ٠ وتحسّس رأسـه ٠ اصطدم بالعرق في جبهته ٠ وتأكد من أن رأسه ليس عظمـاً أبيض ٠ وان الجلـد ما يـزال يغطي تلك الجمجمة ٠ وقف وتمطمط في الهواء الحار وأخذ يركض جهة الماء ٠

داس فوق الاعشاب الخضراء ، وأحسّ بوخز القواقع تحت بطن قدميه ، لكنه لم يأبه لذلك • شعر بفرحة عارمة ، واستطاب برودة الماء • ثم ألقى بجسده على أول موجة حقيقية تواجهه • طشطش الماء من حوله • الا أن الطشطشة ضاعت عندما سدت أذناه ، وتسرب اليهما الماء • بالقرب منه كانت مجموعة تتدافع بالايدي ويتساقط بعضها كأشياء ثقيلة فاقدة للتوازن • فقد هو الآخر توازنه ، عندما دفعته موجة من الخلف ، فتكور ولعق الرمل في القاع • بصق وغسل وجهه بسرعة برشات خفيفة • ثم وقف فوق الاعشاب البحرية ، وقذف ببعضها في غير اتجاه • أعجبته قدرة الفتاة والشاب على الاستمرار في اللعب • وعندما طاشت الكرة نحوه أسرع اليها وقرر أن يشاركهما • بدا عليهما الاستعداد الكامل لقبوله كي يدخل في اللعبة • دخلها فعلا وأصابته نشوة • حتى الفتاة أصابتها نشوة أكبر ، لأن دخول شخص جديد في اللعبة يعطيها امكانية أكبر لتنويع طريقة اللعب • ورأى زوجته واقفة بدون منديل فوق رأسها وهي تتمطمط مثلما فعل هو قبل لحظة • أدرك بالتقريب نيتها • ثم رآها تركض جهتهم • مرت كالسهم واخترقت الماء وأخذت تضرب بذراعيها بلا تنظيم • كانت تخبط الفضاء والماء والزبد وكل شيء • وعندما كان ينظر اليها وهي تدخل وسط حلقة المتدافعين بالايدي • ضربته الكرة على قفاه • فسعل سعلة خفيفة أضحكت الفتاة والشاب معاً • ضحك بدوره وأعاد لأحدهما الكرة بقوة • وقام بحركات عشوائية • تمدد جسده في حيز أكبر من الهواء • صار مثل هلام ، مثل حيوان خرافي طري •

أصبح الحوان يتموج على حفافي في نهاية الزبد ، زاحفاً ٠ منتشراً ، مستطيلا ، حتى أنــه أفزع كل الناس العــراة في المكــان ، لكــن الحيوان الهلامي ، وقد أحس بدغدغة الماء ، أخذ يتقلص شيئاً فشيئاً ٠ ثم عاد الى وضعه الطبيعي ، وتلقف الكرة من جديد ٠ أصر على أن يمضي في اللعبة وحــده ، مــع الفتاة والشاب ٠ لكن زوجته التحقت بهم ٠ شعر بها عندما أمسكته من الخلف ٠ بيديها الباردتين ٠ ارتعش ، التفت اليها ٠ ابتسمت في وجهه ابتسامة خيّل اليه أنه يعرف معناها ٠ اقترحت عليه أن تشاركهم ٠ هــزّ رأسه هزة تعني الموافقة والرفض معاً ٠ وقالت له :

ـ اذهب لتأكل الحمص ٠

ـ لا أحبه ٠

سكتت لحظة وهي تنظر الى الكرة تقفز في الفضاء الفسيح من جهة أخرى ٠ اقتربت منه ٠

ـ لم تكن تحب أبداً اللعب بالكرة ٠

ـ ليس دائماً ٠

ـ اذهب واشرب بيرة في البار ٠

ـ ليست عندي رغبة ٠

ـ عندك رغبة في أن تلعب مع تلك ٠

سمع ما قالت ٠ ولكنــه تظاهــر بعدم الفهم ٠ ورأى بعيــداً الحماة وهي تخطو ببطء دائما جهة كومة الثياب ٠ فكر في أن يقول للزوجة أن أمك قد عادت ، الا أنه عدل عن ذلك ٠ ثم جرى متسلقاً منحنى رملياً حيث اصطفت دكاكين البقالة والمقاهي ٠ وقف وهو

يلهث ليستعيد نفسه الاول • نظر الى البار شبه العاري من الامام ثم أخذ له مكاناً بين الواقفين • كانت زوجته تخطو باتجاه الحماة وقد تدلى ذراعاها حتى الارض ، وتهالكت على نفسها جالسة • تصورها وهي تخرج حفنة جديدة من الحمص المقلي • اتكأت على أمها لتقول لها شيئا • دلت الحماة رأسها جهتها لتسمع بوضوح• أصبحتا هيكلين عظميين عاريين تحت الشمس • تفكك الهيكلان ، وتفككت الهياكل الاخرى على التوالي • سمع طقطقات العظام • بدأت ببطء وخفوت • أخذ الصوت يرتفع شيئا فشيئا • طقطقات وأصوات تكسر • ارتفع الصوت وارتفع حتى ملأ الفضاء من حوله• ضايقه ذلك وأشعره بدوار • أخذ يلتفت حوله • رأى الناس يتعرون وتكشط عنهم جلودهم • وتحسّس جسده ، فوجد الجلد مايزال ملتصقا في مكانه يتفصد عرقاً • أغمض عينيه وفتحهما ليتأكد من أن هذه الاشياء كلها ليست حقيقة • عاد كل شيء كما كان ، فشعر بالراحة ، وضع رأسه بين ذراعيه وسمع صوتاً بالقرب منه :

ـ لا شك أنك متعب • هل تريد أن تذهب الى المرحاض لتتقيأ ؟

* * *

العلبة والنجيمات

عندما أصبحنا وسط الحديقة العمومية الصغيرة • وجلسنا على المقعد الحجري البارد رفعت عيني لأتأمل الأشجار وهي ممتدة في الفضاء طويلة حتى لتكاد تبدو أنها بلا نهاية • بعض العصافير تثقل الاغصان النحيلة فتتدلى مثل عناقيد رمادية وملونة ، بسط خليل الجريدة بيني وبينه على المقعد الحجري • ووضع فوقها علبة السردين • وقسم الخبزة وناولني جزءا منها • ولما لم أنتبه لحركته الاخيرة نبهني الى ذلك بلكزة في كوعي• فارق بصري الاغصان المثقلة • ونظرت الى الطعام القليل بيننا • فكرت أن صورة الاسماك على العلبة مشهية أكثر مما بداخل العلبة لم أكلف نفسي ذات يوم احصاء عدد السردينات التي يحتوي عليها حجم من هذا النوع • كنت آكل فقط وقد أشعر باكتفاء أو لا أشعر به حسب شهيتي للطعام • أما الآن فقد بدا لي أن نصيبي الضئيل هذا لن يكفيني • ولم يكن في مستطاعي تقدير شعور خليل تجاه هذه الكمية القليلة من السردين • الوقت بين الثانية عشرة

والواحدة • يؤكـد ذلك وجود ثلاث عاملات في عمر الزهور يجلسن قبالتنا على المقعد الحجري • ووجود أخريين على مقعد آخر • كانت هناك فتيات أخريات فضلن أن يجلسن على الارض وبينهن شاب في يده كيس مـن البلاستيك الشفاف يحتوي علـى سندويتشات البطاطس المقلية • قلت لخليل وهو مشغول بشق الخبز بأظافره :

ـ ننتقل الى المقعد الآخـر • بالقرب مـن الفتيات الثلاث • ما رأيك لو نشاركهن طعامهن ويشاركننا علبتنا ؟

ـ لا شك أنك تمزح • هذه السردينات لا تكفي حتى لأقلهن شهية •

ـ لا تعتقد أني جـاد • أعرف أن ثمن سندويش واحـد مما يأكلن يعادل ثمن علبتي سردين •

أخذ خليل ينقل بأظافره الطويلة القذرة نصيبه من السردين الى قطعة الخبز في يده • كان يفعل ذلك بأناة ويمرر احدى أصابعه وسط قطعـة الخبز بسرعة وصببت فيهـا ما تبقى دون أن أكلف نفسي احصاء السردينات الباقية • والغالب أنها ثلاث • لم تكن مشكلتي الاساسية هي احصاء ما يوجد داخل العلب ولكن مشكلتي هي الجـوع • اليوم يغـذيني خليل وغـداً يعشيني جليل • اليوم يعشيني فلان وبعد غد فرتلان • وعندما لا يوجد في العالم خليل أو جليل فاني دائما أظل متعلقا بوهم أن أعثر على فلان أو فرتلان • وخليل مثلي يعيش على وهم أن يعثر على جليل • فلان أو فرتلان• اثنان فقدا كل شيء في الحياة الا الأمل • لقد تعرفت على خليل في أحد البارات • عندمـا كنت لا أزال أحتفظ بقليل مـن النقود بعد

طردي من وزارة البريد على اثر اضراب عنيف • أما هو فلم يكن يشتغل في أية وزارة أو أي معمل أو أية شركة • رسب في امتحان الباكالوريا مراراً رغم وعيه المتقدم وذكائه الا أنه في النهاية فضل ألا يعيش مع العائلة لفقرها الشديد • فأخواته الثلاث محترفات • وأبوه يبيع النعنع والفلفل • عندما التقينا في البار لأول مرة • دفع عني ودفعت عنه • ثم أخذنا نتحدث عن النساء وعن الاغاني والتجنيد الاجباري • وقلت له اني لم استدع لأنني محظوظ وقال هو بأنه دفع رشوة فأعفي • ثم انتقلنا للحديث عن صعوبة الحصول على جواز سفر وتحدثنا كذلك عن أوربا وكيفية اغتيال المهدي بن بركة • وشتمنا الوضع القائم وطلبنا كؤوساً أخرى من الشراب حتى لم نعد نقوى على الوقوف • ثم استدعيته الى بيتي الذي لم أدفع كراءه مدة سنة • وفضل على اثر ذلك أن يلازمني • قلت لخليل :

ـ الى متى سنظل هكذا فقيرين ؟

ـ اننا نحيا على كل حال•ليست حياة الرفاهية ولكنها حياة•

ونظرت الى مجموعة الفتيات العاملات الشاحبات الوجوه وهن يلتهمن سندويشاتهن نظر خليل الي ورأيته يبتسم • فكرت أنه سيقول شيئا • قال بالفعل :

ـ انهن بئيسات •

ـ لكنهن أغنى منا •

ـ لقد كنت غنياً ذات يوم عندما كنت في وزارة البريد •

أي غنى ذاك ؟ ! كانت الحوالة تتبخر في أول الشهر • الكراء والبقال والعائلة • والمومسات يأخذن ثمن جهدهن من أثاث البيت : فوطة منفضة • حذاء أو أي شيء آخر • خليل يعرف كل تلك الاشياء جيداً • لقد حكيتها له ولربما أخذت احدى أخواته نصيبها من ذلك الاثاث • من يدري ؟

أخذت أشعة الشمس تتسرب من بين الاغصان • لكن تلك الاشعة لم تكن قوية ولا حادة • ورغم ذلك فالعرق يتفصد من ظهري عند النخاع الشوكي • أوشك خليل على أن ينهي نصيبه من الطعام • توقف قليلا عن المضغ وتجشأ • ثم تجشأ مرة ثانية • قلت له :

ـ هذه الغازات ستقتلك • لقد تفتتت كبدك من فرط الشراب •

ـ وندرة الطعام •

ـ ما أروع تلك الايام القادمة التي سنأكل فيها حتى الشبع• ونشرب فيها حتى الغيبوبة !

ـ ان شاء الله • عندما تلد البغلة أو يبيض الديك •

ـ انك متشائم •

ـ لست متشائماً ولا أي شيء • ولكني رجل واقعي • اذا كنت تريد أن تأكل حتى الشبع وتشرب حتى الغيبوبة فما عليك الا أن تعمل لذلك •

رأيت الفتيات وقد أنهين طعامهن يتراشقن بشيء وهن يتضاحكن • كانت احداهن قد انفصلت عن المجموعة وظلت واقفة تحت الظل واضعة يدها عند خاصرتيها • مفرجة ساقيها •

قلت لخليل :

ـ انها جميلة • أليس كذلك ؟

ـ لا يمكنها أن تهتم بأمثالنا •

أخذ خليل يجمع فتات الخبز • وضعه في العلبة الفارغة ثم كوم الجريدة وألقى بكل شيء فوق نبات ضعيف أخضر ينمو بصعوبة فائقة • اقتحم الحديقة شرطي ورجل من القوات المساعدة غير مسلح • مشيا بهدوء واعتزاز كبير بالنفس • بدا الشرطي منتفخاً مثل ديك • شعرت الفتاة أنها مهددة في أمنها فانضمت الى المجموعة حتى أبسط المتع ممنوعة أمام الشرطة • وبالرغم من الرزانة التي افتعلتها المجموعة فان الشرطي اتجه نحوها • أخذ الحديث يدور بينهم • في البداية كانت الفتيات محافظات • لكن سرعان ما انطلقت الضحكات • استغل الرجلان الفرصة وبدآ يعوضان عن النبذ الذي يلحقهما وهما بدون لباس رسمي • تخيلتهما وهما يدفعان ثلث الحوالة للكراء والثلث الآخر للبقال وما تبقى للعائلة الفقيرة التي قد توجد في أية قرية نائية من الوطن • ومع ذلك فهما يبدوان الآن داخل اللباس الرسمي قويين وغنيين • أي غنى ذاك ؟ ! لا شك أنه مثل الغنى الذي كنت أعيشه وأنا موظف في وزارة البريد • كل الافواه تتحدث دفعة واحدة • والضحكات تصدر متباينة القوة • نسي الشرطي رزانته المفتعلة

ورأيت يديه تتحركان ببهلوانية الى مكان تحت نهد احدى الفتيات . تراجعت الفتاة قليلا وهي تضحك . كادت أن تتعثر وتسقط الى الخلف . في حين انهمك رجل القوات المساعدة في مغازلة فتاة اخرى .

قال خليل :

- لن يحصلا على واحدة.أراهنك . النساء لا يحببن الشرطة.
- من أدراك ؟ انظر كيف يبدين مسرورات .

أخرجت علبة السجائر التي أصبحت شبه فارغة . تناول خليل السيجارة وأشعل لنا بولاعة جميلة لا أدري من أين حصل عليها . وهو مصر على الاحتفاظ بها حتى في أحرج اللحظات المادية.في الواقع تشهيت الفتيات الجالسات والواقفات . وبالرغم من أني لم أكن محظوظا مع النساء فقد كنت أترك لخيالاتي المجال حتى أنفس أكثر . سمعت خليل يزفر زفرة قوية . وفهمت أيضا مايريد .استمر الرجلان في مداعباتهما وقد تجاوزت تلك المداعبات وجهها البريء الاول . أصبحت الايدي تلمس الاجساد . ثم بعض الاماكن الحساسة فيها . استمرت ضحكات النشوة أيضا . ولم يكن ذلك سوى دافع لتصعيد تنهداتنا . سمعنا خلف الحديقة باباً يخبط بعنف . ثم مرّ من أمامنا ضابط شرطة يتبعه شرطيان بثيابهم الكاكية . كانت بعض النجيمات النحاسية تثقل كتفي الضابط وتتدلى الى الامام . توقفت الفتيات عن الضحك وهن خائفات . التفت الشرطي الى الخلف . وتغيرت ملامح وجهه وهو يرى الضابط . أدى التحية . وكذلك فعل رجل القوات المساعدة .

ظهر عليهما انفعال كما لو كانا متلبسين بأبشع جريمة • قال الضابط وهو يحك أنفه :

ـ هل تعتقدان أنكما في ماخور ؟

قال الشرطي وهو يتعتع :

ـ لقد وجدناهم بالفعل ياسيدي كما لو كانوا في ماخور • هذه حديقة عمومية وليست ماخوراً •

ـ من هؤلاء ؟

ـ ذلك الشخصان وهؤلاء الفتيات • كنا نطلب منهم أوراق التعريف •

بدا الارتياح التام على الضابط ثم تقدم منا الشرطيان اللذان كانا يتبعانه • طلبا أوراق التعريف • ماذا تفعلان ؟ لا شيء • أخذت الفتيات العاملات يتباكين • كنا نتغذى ياسيدي • لا نعرف هذين الشابين • غير صحيح • هو الذي ••• قولي الحقيقة يا سمية •• هو •• لكن ••

لم يحاول ضابط الشرطة أن يسمع أي كلمة احتجاج • دفعونا الى السيارة • وركب الضابط بالقرب من السائق • كنت أرى كتفيه من خلال النافذة الصغيرة المشبكة مثقلين بالنجيمات النحاسية • وكان نحيب الفتيات المجهولات يزداد تصاعداً •

★ ★ ★

الحرف

استطاع الحرف أن يتخلص من أيدي حرس القوات المساعدة بسهولة ، لأنهم كانوا مشغولين بهدم خيمته على الشاطىء ٠ اختفى خلف كثبان الرمل ٠ ولأنه لم يكن يشكل أية خطورة ، لم يهتموا بفراره ٠ المدينة صغيرة ٠ ويمكن غداً أو بعد غد مشاهدة الحرف وهو يتجول ، أو منعزلاً في ركن من مقهى يدخن الكيف في تأمل ٠

قال الضابط :

ـ لاتهتموا كثيراً ٠ سوف يأتي ويقدم نفسه الينا غداً صباحاً أو هذه الليلة ٠ هل نهتم بمخبول ؟

قال أحدهم وهو يرفس الباش بحذائه :

ـ أخشى أن يرتكب حماقات أخرى هذا المساء ٠

قال الضابط :

ـ كل ما يهمنا هو أننا نود أن نعرف من أين أتى بهذه الخيمة ؟ من أين له الفلوس حتى يشتري مثلها ؟

كان الحرف يرى قاماتهم في الظـلام ، وأحيانـاً يميز وجـوه بعضهم عندما تنفضح تحت ضوء البطاريات • وفكر أنه يستطيع أن يتغلب على اثنين منهم على الاقل لو تشاجر معهما • ولكنهم أكثر من اثنين • أخذ يمسح الزبد عـن شفتيه ويلعن في الهواء • ورآهم يتشكلون لحمل الخيمة الى السيارة •

كان الحرف معروفا من طرف الجميع • ولا شك أن قصته مع حرس القوات المساعدة هذه الليلة ، ستنتشر في المدينة الصغيرة• سيعرفها الكل • وتبدأ التكهنات كيف يستطيع الحرف أن ينتقم من هؤلاء الحرس • ان حماقاته كثيرة وشاذة ، سواء في السجن أو في مستشفى الامراض العقلية • وعندما ركب الحرس السيارة : قال الضابط :

ـ انها خيمة غالية الثمن • لا يمكن أن يشتري مثلهـا حتى الباشا نفسه •

ـ هذا الاحمق المعتوه لا ندري من أين أتى بها ؟

كان الناس يعرفون من أين أتى بها • لقـد ذهب مع هيبية فرنسية الى تاغازوت • كانت تدعي أنها التقت بأميرها • تعتقد حقاً أنه أمير ، بلحيته القصيرة وبشرته السمراء • وعندما عاد من تاغازوت ، حمل معه هذه الخيمة ومعطفا للفرو ، وهذا المعطف هو الذي كـان يرتديـه الحرف يوميا رغم الحـرارة الشديدة • كـان يرتدي أيضا سروالاً مقصوصاً فوق الركبتين ، بحيث تبدو ساقاه المشعرتان وقدماه الحافيتان المتصلبتان • كل ذلك مع معطف من الفرو مرتفع الثمن والحرارة شديدة •

عندما رأى الحرف السيارة تتحرك ، دك الرمل بقدميه وأراد أن يصيح ٠ لكن الصوت انحبس في حنجرته ٠ دس يده في جيب معطفه الفرو وتحسس حزمة من الأوراق النقدية ٠ مشى نحو المكان الذي كانت الخيمة منصوبة فيه وأخذ يذري الرمل كمن يبحث عن شيء ٠ لكنه لم يعثر على ذلك الشيء ٠ جلس وأخذ يمضغ ريقه ٠ وقف ثم جلس مرة أخرى ومد رجليه ٠ شعر بوخز تحت عجيزته فوقف وتوجه نحو الأصوات القريبة ٠ مر بالقرب من فندق «الجزر» وظهر له مركز الشرطة فاغرا فاه ٠ انسل الى زقاق ضيق ، فارا بنفسه منهم٠لو ألقوا عليه القبض لأشبعوه ضرباً ورفساً ، وألقوه أياماً في قبو مظلم يتغير زبناؤه باستمرار الا هو ٠ لقد كانت له تجربة في ذلك المكان المظلم الذي يقضي فيه الزبناء حاجتهم أمامك وقد تدلت أعضاؤهم الجنسية ٠ كان الحرف يقبض على حزمة الأوراق النقدية في جيبه بيد حديدية ٠ وعندما رأى شبح أول انسان في رأس الزقاق ارتجف ووقف في مكانه متصلباً ٠ لكنه عندما عرف أن الأمر لايتعلق بواحد منهم ، مشى في ثقة نحو المكان الذي خطر له توا ٠ كانت جل الحوانيت قد أغلقت أبوابها تقريباً ٠ والقليل منها مازال مفتوحا ، ضيقة الأبواب ٠ وقد اصطفت كؤوس اللبن الرائب على جوانبها ٠ مر ثلاثة أشخاص ملتفين في جلاليبهم ٠ وسمع اسم « الحرف » يتردد على شفاههم ، لكنه لم يعر أحدهم اهتماماً ٠ كانوا يتحدثون عنه من غير شك ٠ ووجد الحرف نفسه أخيراأمام باب دار يعرفها جيداولكنه لايزورها الاقليلا٠طرق الباب وهو لايزال يتحسس حزمة النقود في جيبه ٠ طرق مرة أخرى ففتحت

لـه الباب أمرأة عجـوز على جبهتها وشـم عمودي يقسمها الى نصفين ٠ قالت المرأة :

ـ الحرف ، ماذا تريد ؟ اذهب فتش عن مكان آخر يليق بـك يـا خانز ٠

لكنه لم يستمع اليها ، بل دفع الباب بكل قوة وعنف ٠

ـ سأبيت هنا الليلة ٠ لقد أخذوا خيمتي ٠

ـ من ؟ البوليس ؟ لاشك أنك عملتها ياخانز ٠

اجتاز باحـة الدار وأصبح وسط الغرفـة التي ينبعث منهـا الضوء ٠ وقالت المرأة بصوت منخفض :

ـ لاترفع صوتك ٠ الجيران فوقك ٠

كانت ثلاث نساء ممددات ٠ وأخذ يجيل النظر فيهن ليختار احداهن ٠ وعندما لحقت به المرأة قالت :

ـ أنا لا أمزح ٠ ادفع النقود أولا ٠

أخرج الحرف حزمة النقود وأراها للعجوز ،فصرخت في النساء :

ـ ياه ! أفقن فالحرف غني هذه الليلة ٠

وأرادت أن تخطف من يده حزمة النقود ، غير أنه أعادها الـى جيبه بسرعة ٠ وقال :

ـ أريد تلك ٠

ـ هي لك ٠ هات النقود سأعدها لك ٠

ـ أنها معدودة ٠

ـ هات ياخانز ٠

ـ الخانزة هي أمـك ٠

وأعطاها ورقة نقدية فاختطفتها من يده وهي تقول :

ـ هل تكفي هذه يامخبول ؟ للشراب أم للنوم ؟

دفع لها الحرف ورقة أخرى ، الا أنها أرادت ان تستزيد لكنه رفض ٠ وجلس مجيـلا نظره في الغرفـة ٠ كانت مستطيلة مطلية بطلاء يقترب مـن الأصفر الباهت ٠ وعلى الجـدران علقت بعض الصور لسيدنا علي والغول ولحواء وهي تقدم التفاحه لآدم والأفعى بينهما وقد لوت جسدها على جذع الشجرة ٠ وكانت نافذة وحيدة صغيرة على شكل شبه منحرف قرب الباب ، وقد اخترقها الضوء حتى انتهى وغاب في ظلام خفيف خارج الغرفة ٠

اقتربت احدى النساء من الحرف :

ـ من التي تختار ؟ أنا ؟

ـ أريد تلك ٠ أنت أكل جسدك الزهري ٠ ماهذه الدمامل على شفتيك ؟

ـ أنت أيضا تفهم هذه الأمور ياأحمق ٠

ـ الحمقاء هي أمك ٠ ابتعدي عني لاأريد خانزة مثلك ٠

فصاحت المرأة في العجوز :

ـ أمي طامو ٠ هل جننت حتى تستقبلي في بيتك مثل هـذا المخبول القـذر ٠

قالت العجوز :

ـ أقرع وبفلوسه ٠

ـ يلعن بوها حيـاة ٠

ـ اسكتي أنت ٠ أنه لايريدك ٠ ومن حقه ذلك ٠

التفتت العجـوز الـى الحـرف وأخـذت تلاطفـه ٠ بالغت في ملاطفتها له ٠ انتفخ الحرف مثل ديك يستعد لمعركة حقيقية أو معركة جنسية ٠ وأرادت أن تجعـل لملاطفتها ثمنـا ٠ وقالت وهي تحرك الحرف من كتفيه :

ـ نريد أن نسكر الليلـة ونتعشى ونمرح ٠ هات ثمن اللحم والخضر والفواكه ٠ هذه النقود ستأخذها الساقطة ٠

ـ انني لا أملك بنكا ٠

أدخل يده في جيبه وأخرج ورقتين نقديتين ٠ تناولتهما العجوز مسرورة وهي تقول :

ـ أنت الآن رجـل ٠

وللنساء :

ـ ألم أقل لكنّ ٠ أقرع وبفلوسه ؟ ٠

التفت الحرف الى المرأة التي رغب فيها ٠ اقترب منها ووضع كفه فوق كفها ٠ لكنهـا أبدت بعض التمنع ٠ سحبت يدها مـن تحت يده وهي تقول :

ـ هل تحبني حقـا ؟

قال الحرف :

ـ أنا لم أرك قبل الليلة ٠ كيف أستطيع أن أحبك ٠

ـ هل تحب هيبية اذن ؟

ـ نعم ٠ أحب كثيرات ٠

وقالت أمرأة أخرى وهي ممددة فوق زربية مهترئة :

ـ لقد أفسدت الهيبيات القذرات السوق علينا ٠ سأذهب الى الدار البيضاء لأصبح غسالة ٠ وسأتزوج بعسكري ٠

ـ اسكتي يافرتلانة ٠ لاتعتقدي أنك ستجدين زوجا بسهولة هناك ٠ الفتيات كثيرات والرجال أصبحت عيونهم في السماء ٠

ـ كل زرع له كياله ٠

ـ انك لست زرعاً ، أنت حنظل ٠

ـ أقفلي فمك يا ساقطة ٠

ـ الساقطة هي أنت ٠

كانت العجوز قد غادرت الغرفة وقد التفت داخل حايك أبيض: متسخ ٠ أما الحرف فقد حاول أن يقفل فم المرأة التي بجانبه حتى لاتستمر في الشتم ٠ لكنها أبعدت شفتيها عن كفيه ٠ وقالت :

ـ قم اقض حاجتك وابتعد عني أيها المخبول ٠

أراد الحرف أن يـرد عليها ، لكـن طرقات قويـة على الباب أسكتتهم جميعا ٠ وتساءلت الأعين عمن يكون الطارق ٠ وأخـذت النساء في الاهتمام بأنفسهن ٠ ربما يكون زبون جديد ٠لكن الحرف وقف فجأة ، وخرج الى باحة الدار ٠ أخذ يجيل نظراته في كل مكان ٠

استمرت الطرقات بخفة هذه المرة فخرجت احدى النساء الثلاث ٠ وقبل أن تحاول فتح الباب وضعت أذنها عليه لتستمع الى الحديث الدائر في الخارج ٠ كان من في الخارج قد أحس بأن شخصا ما وراء الباب فصرخ بصوت مرتفع :

ـ بوليس ٠ افتحي يا ساقطة ٠

صرخت المرأة صرخة مكتومة :

ـ ناري !

اذ ذاك أخذ الحرف يدور على نفسه٠توجه بسرعة الى صندوق كان موضوعا قرب الحائط القصير ٠ ثم قفز الى الخارج بعيدا عن سيارة الشرطة ٠ وسمع أصواتا خلفه وهو يركض : « انه الحرف ٠ قف يا بغل ، يا أحمق يا مخبول ٠ »

لم يكن يلتقط من هذه الكلمات الا بعض الحروف٠كان يركض ويركض ولم يكن أحد يركض خلفه ٠ وقال الضابط :

ـ لاتهتموا بذاك المعتوه ٠ سنقبض عليه الليلة أو غدا صباحا ٠

ثم دفعت النساء بقوة داخل السيارة الى جانب نساء أخريات ورجال آخرين ٠

* * *

خلف النافذة

كانت سيارة الشرطة مرابطة في الجهة الأخرى من الشارع ، قرب النادي الايطالي ٠ لمحتها (ك) فهرعت مفزوعة الي تخبرني بذلك ٠ لم أفاجأ ، لأنني رأيت السيارة من خصائص النافذة وهي في مكانها منذ ساعات ٠ لم أرد أن أخبر (ك) بذلك لأنها كانت حاملا ، وخفت أن يؤثر ذلك على صحتها وعلى تكوين الجنين ٠ لكن وقد اطلعت الآن على الأمر ، قلت لها وأنا أهدىء نفسي :

ـ لاتخافي شيئا ٠ انهم مثل الكلاب ٠ سيظلون هناك حتى ييأسوا ثم ينسحبوا ٠ قالت بخوف :

ـ أخشى ألا يتم ذلك ٠ ان أحدهم واقف خلف السيارة وينظر الى النافذة باستمرار ٠

ـ قلت لاتخافي ٠ فالأمر ليس على هذا الشكل من الخطورة ٠ ثم اننا تعودنا على ذلك ٠

مع ذلك ، رأيت ملامح وجه (ك) يتغير ٠ أخذت تدور في مكانها دون أن تعرف ماذا تفعل ٠ كانت تفتش عن شيء ربما ٠

ولم أسألها عن ذلك الشيء الذي تفتش عنه ٠ رأيتها تدور ذاهلة على نفسها، وقلت لها :

ـ يمكنك ان تستريحي ٠ هـل تفتشين عـن كرسي ؟ انهـم مسمرون هناك منذ ساعات لم أرد اخبارك ٠ عندما يتأكدون من أننا لسنا في البيت سينصرفون ٠ الأمر ليس خطيرا اطلاقا ٠

وقالت (ك) :

ـ اني لا أثق بهم ٠ هل الأمر يتعلق بمظاهرة الأمس ؟

قلت :

ـ نعم ٠ لكنهم لن يوقفوا سيل هذه المظاهرات والاضرابات المتوالية ، حتى ولو تم اعتقال بعض الاشخاص ٠

شممت رائحة البصل قادمة من (ك) ٠ قلت :

ـ اذهبي وأكملي تهييء طعامك ٠ سأتغذى اليوم بشهية ٠

ـ أما أنا فلن أستطيع الأكل حتـى ينسحب أولئك الغربان ٠

انسحبت (ك) الى المطبخ ، وجلست أنا على السرير أفكـر ٠ كنت أجوب الغرفة بخطوات بطيئة، متجها صوب النافذة أحيانا ، وصوب الفراش أحيانا أخرى أجلس على حافته وأفكّر ٠ ٠

كان الأشخاص الستة في السيارة يرتدون ثيابا مدنية وعلـى رأس كل واحد منهم طاقية باهتة ، ويرتدون معاطف قديمة ، من ذلك النوع الذي يباع في سوق الخردوات والذي تبعث لنا منه أمريكا بواخر كثيرة عنوة على الصداقة ، مع ـ طبعاً ـ بواخر أخرى تحمل أطنانا من القمح المسوس الذي تعافه حتى الدواب ٠ كان ذو الجثة الغليظة الذي يقف خارج السيارة، ينظر الى النافذة بضبر وبلادة٠

رأيته يتجه الى السيارة ، ويطلب سيجارة من أصدقائه الجالسين في الداخل يناقشون ـ ربما ـ كيفية اعتقالي ٠

كنت متأكدا أن الأمر لن يعدو مجرد اعتقالي حتى تخف حدة المظاهرات العمالية والطلابية ٠ فقد كانوا يشكون دائماً في أمثالي عندما تتأزم الأوضاع السياسية في البلاد ٠ فيهربون الى اعتقال مائتين أو ثلاثمائة شخص ممن لهم سمعة سيئة ودوسيهات في مراكز الشرطة ٠ لكن ذلك ، في الواقع،لم يكن هو الحل ٠ فقد كانت الاضطرابات تستمر دون أن يستشير المتظاهرون أحدا ٠ كان كل واحد منهم يشعر أنه مذنب لأنه تخلف عن اللحاق بنا ٠ لذلك فعنادهم يشتد ، وتستمر المظاهرات هنا وهناك في مختلف المدن وفي مختلف الأحياء ٠ ولايقف في وجه ذلكحتى السيارات السرية الكثيرة المرابطة في كل شارع ٠ فقد كان المتظاهرون يعرفون كيف ينظمون أنفسهم ٠

وقفت وذهبت بهدوء الى المطبخ ٠ وجدت (ك) متوقفة عن الحركة ، جالسة على طبلة صغيرة وهي تبكي ٠ ولما رأتني مسحت دموعها بسرعة وتظاهرت بالثبات،لأنها خافت أن أنهرها ٠ وقفت وأدارت ظهرها اليّ ووجهها صوب الصنبور ، حيث تراكمت تحته أوان وصحون غير مغسولة ٠ فتحت الصنبور وتركت الماء يشرشر فوق الأواني ٠ وكانت تنظر الي خلسة بطرف عينها ٠ قلت :

ـ لماذا أنت متأثرة٠ أنت تعرفين أنهم يأخذونني ويعيدونني اليـــك ٠

ـ لكني لن أصبر على ذلك ٠ ستصبح أباً في المستقبل وسيشنقونك دون أن يهتموا بأبنائك أو يشفقوا عليهم ٠

ـ انك تذهبين بعيدا ٠ أين ذهبت أفكارك الثورية عندما كنا صديقين قبل الزواج ؟

لكن يا (ج) الأمر يختلف الآن ٠ سيصبح لنا أطفال ٠ أنا لست متخاذلة ٠ كما عرفتني سأظل ٠ لكن هناك شيئاً يؤرقني لا أدري ما هو ٠

ـ ليست المشنقة على كل حال ٠

ـ سأذهب معك اليها ٠

قلت بغضب :

ـ هيئتي طعامك ٠ أنا جائع ٠ لاتخافي الى هذا الحد ٠

أمسكت أنفاسها ودلت يديها النحيلتين في الماء وأخذت تغسل الصحون وهي تذرذر الصابون البودرة عليها ٠ تعلقت بيديها رغوة غير بيضاء تماما ٠

انصرفت الى الغرفة الاخرى المطلة على الشارع ٠ ولم أحاول أن أنظر من النافذة ٠ لقد كان عندي اطمئنان نفسي خاص ، تجاه مواقف مثل هذه ٠ ذهبت وتمددت فوق السرير ٠ تناولت المنفضة وباكيت السجائر وقربتهما مني ٠ أخذت أدخن وأتأمل تعرجات الدخان المتلاشية في فضاء الغرفة ٠ وقلت : « لماذا لاأستمع الى الموسيقى ولو لآخر مرة ٠ » أدرت البيك ـ آب فسمعت خطوات (ك) سريعة ، قادمة من المطبخ ٠ قالت وهي تلهث :

ـ هل جننت ؟ أنهم سيسمعونك ٠

ـ الأمر لايعنيك ٠ ثم انه لايجب أن تخافي الى هذا الحـد ٠ عودي الى المطبخ ٠

ـ اسمع يا (جـ)،يمكن أن يكون واحد منهم الآن خلف الباب٠

ـ انك حمقاء ٠

ـ أرجوك ، اخفض صوت البيك ـ آب ٠

فعلت ، واجتذبت نفساً عميقا من السيجارة ٠ كنت أبتسم دون أن أدري حتى لماذا ٠ ظللت أبتسم ٠ اعترتني نشوة خاصة لم أعرف سببها ، بل أخذت أقهقه ، وقفزت من فوق السرير ٠ أخذت أجوب الغرفة طولا وعرضـا ٠ شعرت أن الشخص الآخـر في داخلي الذي كان الذي كان يقهقه اعتراه ندم ٠ ذهبت الى النافذة ٠ كانت السيارة ماتزال في مكانها ، لكن الشخص الذي خارجها اختفى ٠ حاولت أن أفعل شيئا ٠ عدت الى السرير وتمددت٠أشعلت سيجارة ثانية ٠ كان صوت فيتزجرالد يملأ الغرفة بدفئه ٠ كانت السعادة تغمرني مثلما لميحصل لي من قبل٠كنت متيقنا أنهم سينصرفون عندما يتعبون ربما لم تعطهم الأوامر لمهاجمة بيتي ٠٠ لكن من يدري؟ فقد ينتظرون فرصتهم المناسبة٠لاأحد يعرف مايدور بتلك الرؤوس المخشبة التي آلت على نفسها الكتمان والمكر ٠ وتخيلت أنهم يفعلون نفس الشيء الآن بالنسبة لرفاق آخرين ، في أماكـن أخرى ٠ وعندما هيأت (ك) الطعام تغذينا ، ولم تكن لها شهية، بل كانت تذهب بين فترة وأخرى الى النافذة ، تنظر اليهم وتنظر الي ٠ ورغم محاولاتي المتكررة باقناعها أن ذلك لايشكل خطرا ، لم تقتنع بل كانت صامتة ، حائرة ، مترددة ، وقلت لـ (ك) :

ـ اسمعي يا (ك) اذهبي واستريحي قليلا ٠ أنا شخصيا سأنام ٠

لكنها لم تلب طلبي ٠ بل ظلت تمشي بين النافذة والسرير خائفة ٠ وفكرت في أن الزواج عرقلة حقا ٠ لم تكن (ك) هذه مثل (ك) التي عرفتها سابقا ٠ كانت شجاعة لاتخاف ٠ لكن الآن لا أفهمها اطلاقا ٠ هل تخاف علي الى هذا الحد ؟ وقفت وطردتها من الغرفة ، الى الغرفة الأخرى المجاورة ٠ أغلقت الباب وأنا أهددها بألاتعود مرة ثانية ٠ وأعلنت لها أني في حاجة الى أن استريح ٠ لايهمني أولئك الكلاب المرابطون هناك٠اختفت (ك) ٠ ولم أعرف ما الذي كانت تفعله ٠ نمت أكثر من ساعة ٠ استيقظت ولم تكن بي رغبة لمغادرة الفراش ٠ ظللت ممددا وأشعلت البيك ـ آب ٠ واستمعت من جديد لصوت فيتزجرالد الذي كنت أحبه، ثم سمعت طرقات خفيفة على الباب ٠ ذهبت وفتحت ٠ خمنت أن (ك) تريد أن تقول شيئا ٠ كانت الآن أكثر ثباتا مما سبق ٠ وقالت بهدوء أعصاب :

ـ أعتقد أنهم لن يأخذوك معهم ٠ لو أرادوا لفعلوا ٠

ـ لقد قلت لك ذلك سابقا فلماذا الخوف اذن ؟ هل تأكدت مما أقول ؟ اذهبي الآن وهيئي القهوة ٠

ـ سأفعل ٠

لكنها قبل أن تفعل ، ذهبت الى النافذة وأخذت تطل عليهم ٠

ـ هل مايزالون هناك ؟

ـ نعم ٠ لكني لست خائفة ٠

ـ ماذا يجدي الخوف في مواقف مثل هذه ؟ اذهبي وهيئي القهوة ٠

أخذت كتاباً وحاولت أن أقرأ ٠لكن لم أستطع أن أركز انتباهي ٠ كان فكري شاردا حقا ٠ ألقيت الكتاب وناديت على القهوة ٠ جاءت (ك) بصينية صغيرة ٠ وضعتها أمام الفراش وجلست بالقرب مني ٠ ثم دخلت تحت اللحاف بجانبي ٠ شعرت بجسدها باردا ٠ ثم شيئا فشيئا أخذ يتدفأ جسدها الحي النحيف ٠ سكبت القهوة وناولت الفنجان لـ (ك) لكنها رفضت ٠ قالت انها تريد فقط أن تتمدد بالقرب مني لتشعر بالدفء٠ ان البرد قارس٠ في الواقع، لم يكن البرد قارسا ، ولكن شعورها الخاص فقط هو الذي يوحي لها بأن الجو بارد ٠ جلست أنا فوق الفراش ٠ مددت يدي الى البيك ـ آب أغير الأسطوانة أشعلت سيجارة وأخذت أرشف القهوة بلذة٠أما هي فقد كانت عيناها في السقف٠وبدت لي بطنها منتفخة وقد تجمع اللحاف فوقها ٠ وفكرت تفكيرا غريبا ٠ يمكن أن يختنق الجنين في بطنها بهذا اللحاف ٠ ثم طردت هذه الأفكار ٠ وقالت (ك) :

ـ اسمع يا (ج) ٠ هل تعتقد أنهم سيظلون مرابطين هناك ؟ الى متى اذن ؟

لم أحاول أن أجيبها٠ بل استمررت في الاستماع الى الموسيقى ورشف قهوتي بلذة ٠ وعندما انتهيت تمددت بجوارها ٠ كانت بي رغبة لأن أفعل معها الحب ٠ لكنها حامل ومتأثرة الى حد بعيد ٠ لم يكن لديها ـ من غير شك ـ أي استعداد لذلك ٠ ألقيت بذراعي

فوق جسدها الممدد ، وشعرت بحرارة ، فائقة ، في هـذه الأثنـاء كانت طرقات تسمع على الباب ، خفيفة أول الامر ، تنبهت (ك) بكل حواسها ، وقلت لها :

ـ يمكن أن تكون احدى جاراتك ، لكن لاتفتحي ،

ـ لن أفعل ، يمكن أن الجيران فهموا كل شيء ،

ـ لايهم ، انهم يفهمون كل شيء ،

ازدادت الطرقات على الباب فخفضت صوت البيك ـ آب ، كانت الشمس قد بدأت تغرب ، والطرقات تزداد أحيانا ، لتتوقف بعد ذلك ، وشككت في هذا الالحاح من طرف الطارق،انزعجت (ك) رغم أنهـا تظاهـرت بالثبات واللامبالاة ، في الاخير أحسست أن جسدها أخذ يتحرك ، وقفت في النهاية وذهبت الى النافذة ، ظلت واقفـة هناك ، كنت أتأمل جسدهـا الرائع الحي ، كانت شهية حقاً ، قلت لها وهي ما تزال واقفة :

ـ هل ما يزالون هناك ؟

قالت بتخوف :

ـ يمكن أن يكونوا خلف الباب ، لقد قل عددهم في السيارة ،،

قلت :

ـ تعالي وتمددي ، لا نعيرهم أدنى اهتمام ،

عادت (ك) بتخاذل واضطراب وتمـددت بجـواري ، كان جسدها الآن يرتعش ، ازدادت الطرقات وخفتت لثوان ثم عادت من جديد ،

قالت (ك) :

ـ يجب أن ترحل غدا حتى تنتهي موجة الاضرابات ٠

ضممتها الي بقوة ٠ وازدادت الطرقات عنفا ٠ كنت مع ذلك أشعر باطمئنان وبعدم خوف ، رغم الحاح الطارق ٠ التصقت (ك) بي ، وأحاطتني بذراعيها ٠ وسمعت بكاءها تحت اللحاف ٠ ضممتها بقوة ٠ قلت وأنا أحس بحركات الجنين في بطنها :

ـ كفي عن البكاء ٠ لاتخافي ٠ في امكانهم أن يكسروا الباب٠ لاتخافي ٠

مع ذلك ، كانت ماتزال تبكي وجسدها يرتعش ٠ كان الجنين يرتعش بدوره في بطنها ٠ وعندما مر قليل من الوقت ، سمعنا محرك سيارة تغادر المكان في الشارع ، كانت الغرفة مظلمة الآن ولم نستطع اضاءتها ٠ وقالت (ك) :

ـ انهم ينصرفون ، لاشك انهم سيعودون في الليل ، أو في الفجر ٠

★ ★ ★

أوهام

ألقيت نفسها من النافذة ، التي لم تكن بعيدة عن الأرض ٠ و فيالخارج سمعها تركض وهي تنتحب ٠ مد عنقه من النافذة ، نظر اليها في غضب ٠ اختفت في الظلام البارد ، بعد دقيقتين فقط أو أقل ستكون في بيتهم ٠ ستحكي لوالدتها كل شيء٠أغلق الرتاج٠ دار في الغرفة وهو يفكر بعصبية ٠ صرخ الطفل الصغير ، فحاولت أخته التي تكبره بعامين أن تسكته ٠ نظر اليها ٠ انهما يشبهان دميتين كهربائيتين ٠ ورآها تنتف شعرها وتصرخ: « ويلي ويلي! » وتتجه الى النافذة لتلقي بنفسها منها الى الخارج ٠

قال للحاج :

ـ هات كأس شاي ٠

طقطق الكرسي العتيق من تحته كما لو كان سيتكسر على الفور ٠ فتح الجريدة على الصفحة الثقافية ، وأخذ يقرأ قصيدة لأحد أصدقائه ٠ كل الاصدقاء أصبحوا شعراء الا هو ٠ قال ان طموحه أكبر من ذلك انه لا يتسرع في اختبار موهبته ٠ قد يختبرها

بعد عشر سنوات • ربما تكون أنضج من جميع مواهب هؤلاء الذين يكتبون •

قال الحاج :

ـ سي عبد الكريم ، من أين تحصل على كل هذه الصحف ؟

ضحك الحاج وأضاف :

ـ لو فتحت مكتبة هنا لكنت اغتنيت من سنوات •

ـ لمن ستبيع كتبك ؟

ـ لك وحدك •

أخذ عبد الكريم يرشف الشاي الساخن • يتتبع أبيات القصيدة • يعيد قراءة الأبيات والمقاطع مثلك لم أر واحدة أبدا • أنت أجمل من كومونة باريس • آه عفوا ، أنت أسخف من ثورة بوحمارة ، في الساحة المتربة بعض البعر والروث • دجاجات هزيلة تنقب هناك بمناقيرها • مرت مارتين وهي تحمل قفة في يدها • حيته وهي تبتسم • رد بتراخ • قالت :

ـ أليس عندك درس الآن ؟

ـ لا أشتغل هذه الظهيرة •

ـ مر عندنا هذا المساء • لقد جلب أندري زجاجات جيدة من الخمر • سأهيىء بايلا • هل تحبها ؟

ـ سأحاول أن أمر • اني أحب البايلا كثيرا •

انصرفت مارتين وقال الحاج :

ـ ان وجود هذه الثانوية أنعم علينا بمثل هؤلاء الناس • لم نكن نرى الأجانب الا وهم عابرون من هنا •لو عربنا التعليم مارأينا مثل هؤلاء الجميلات •

ـ اذهب الى الدار البيضاء وستشبع من رؤيتهم ٠

ـ آه ، الدار البيضاء ! انها حلم ياسي عبد الكريم ٠ يقال ان فيها عصابات كثيرة ٠ وحتى الفتيات هناك يغتصبن الرجال ، ماذا قالت لك تلك الأجنبية ؟

ـ ليس ذلك شغلك ٠

ـ معك حق ياسي عبد الكريم ٠

أخذ يتلهى بالنظر الى الدجاجات التي تنبش الروث والبعر بمناقيرها وهي تتقافز ٠ لم يكن يحيط المكان سوى بعض الحوانيت،وخلفها دور شعبية مكتظة بالكثير من الأطفال الصغار٠ وخلف الدور المكتظة تفرقت نوايل لخماسين ومستخدمين في البساتين ٠ ومن غير شك فان تلك النوايل هي الأخرى اكتظت حتى أنها لم تعد تسع أصحابها فلفظت بعضهم الى الخلاء ٠ أمسك عبد الكريم الجريدة من جديد وأخذ يقلب صفحاتها دون اهتمام ٠ رفع رأسه فرأى قرويا يسوط حماره بعصاه ٠ لكن الحمار لايأبه للضرب ٠ لقد رفض أن يتحرك ٠ أن يتقدم ٠ يحلو لعبد الكريم أن يجلس في هذا الوقت ، عندما لايكون عنده درس في الثانوية يثرثر مع الحاج أو يقرأ ٠ ان ذلك على كل حال أفضل من النوم ٠ هناك بعض الأصدقاء لايفعلون سوى ذلك ٠ ماذا يستطيع أن يفعل المرء في قرية صغيرة ، تبعد عن اقرب مدينة بمائة وعشرين كيلو مترا؟ لقد اختار أحد رفاقه في العمل الاغراق في الشراب ٠ بعضهم اختاروا مطاردة تلميذاتهم ٠ أما هو ، فكان يقرأ وينام مع مارتين كلما أتيحت الفرصة أو تغيب أندري ٠ ومع ذلك فقد كان أندري يحبه ٠ وكانا يتناقشان باستمرار عندما يشربان عن حوادث ماي د 68

وكيف أن أندري استطاع أن يحطم كثيرا مـن علامات المرور وأن مارتين تمكنت هي الاخرى من احراق متجر كبير للعطور ٠

ـ ياللأيام الجميلة ! هل تذكرين يامارتين عندما فجرنا ذلـك الغضب ؟

كانت أياما سعيدة حقـا ٠

وقال عبد الكريم :

ـ ما أروع أن يفجر الانسان موروثه من الغضب ! هل تعرف ياأندري أن الغضب ليس حالة نفسية ولكنه موروث تاريخي ٠ انه خلاصة ماض بأكمله ٠

ـ صحيح ـ ولقد استطعنا أن نفجر جزءاً من ذلك الموروث ٠)

ورأى عبد الكريم الرجل القروي وهو يشد حزامه ٠ ثم انحنى الرجل ورفع عصاه عن الأرض٠وعندما حاول أن يهوي على الحمار، رفع هذا الاخيرأذنيه وجرى الى الامام ٠ ركض صاحبه وراءه ٠ ثم تخلى عبد الكريم عن مشاهدة ذلك ٠أدخل اصبعين في الكأس وأخرج أوراق النعنع وأخذ يمصها ٠ كانت لذيذة جداً ٠ وهو يحب أن يفعل ذلك أحياناً ٠ تلك عادة تذكره بسنوات الطفولـة ٠ عندمـا كانت والدته تأمره أن يفرغ البراد من النعنع وينظفه٠كان يختلي بالبراد ويمصمص كل محتواه٠كم كان ذلك النعنع لذيذا وحلوا ٠ولقد احتفظ بهذه العادة حتى بعد زواجه ٠ يحب أن يمارسها أحياناً ٠ وكانت الزوجة تقول : « انك لست طفلا صغيرا ٠ اشتر لك مصاصة أطفال نطليها لك بالعسل أو بالمربى ٠ » لم يكن يهتم لذلك ، بل يستمر في مصمصة أوراق النعنع وتفلها على الصينية ٠ ربما كان عنده

شعور بمضايقتها • لأنها تحاول ما أمكن أن تمنعه من مسراته الصغيرة• تلك المسرات الصغيرة التي هي أساس سعادة الانسان• وكان يعتقد أن تلك الأشياء التافهة في نظر الناس ، هي من الأهمية بمكان بالنسبة للشخص الذي تصدر عنه • لقد تعود أن يحترم أبسط وأحقر سلوك انساني • ولعل ذلك هو الخيط الدقيق الذي فصل بينهما • لأنها لم تكن تتفق معه في وجهة النظر هذه • وألحت عليه صورتها• قفزت من النافذة ثماختفت من أمام عينيه، واختفت أيضا من مخيلته • وظهر الطفلان يتقافزان وينادیان عليه بصوت واحد • وراح يقول لنفسه انه قاس جداً بقدر ماهو عاطفي• وحاول أن يحط مهذا الأخذ والرد في رأسه • ليكن الانسان شجاعا ولو مرة واحدة في حياته باتخاذ قرار معين مهما بلغت تفاهته•ودفع الكأس فوق الطاولة • وقف واتجه نحو الحاج • دفع له ثمن الشاي• قال هذا الأخير وهو مشغول بتحريك زر المذياع :

ـ صافي سي عبد الكريم ، ستذهب عند الأجنبية ؟

ـ هل يهمك ذلك ؟

ـ عندما أكون معها فيالفراش سأنادي عليك •

وقال الحاج وهو يضرب صدره بكفه :

ـ الله الله ! كم أنت كبير القلب ! ان ظني لم يخطىء فيك أبـــداً •

ـ سأتركك معها وسأنادي على الجيران • وسيرون كيف أن رجلا متسخا مثلك استطاع أن يغوي امرأة في غاية الجمال •

ـ سينصبون لي تمثالا اذ ذاك ، وسيحترمني القايد أكثر ، وسيعمل كل مـا في مستطاعـه لانجاحي في الانتخابات القادمـة ٠ وسأصبح اقطاعياً كبيراً ٠

ـ هل ستنساني ؟

ـ كيف أنسى سمساري ؟

ضحكا معاً ٠ التقت كفاهما في الهواء٠شدا على كفي بعضهما بقوة ٠ ونزلت دمعة فرح من عين الحاج ٠ غادر عبد الكريم القهوة٠ أحس أنه يعيش في فضاء هائل متخيـل ٠ ليست هنـاك بيوت ولا أشجار ولاطرق ولافلاحون ولاثكنات عسكرية ٠ هناك فضاء واسع فقط ٠ الا أنه تضايق منه ٠ لقد كان مخيفاً ٠ فهو لايستطيع أن يعيش في فضاء مثل ذاك ، لأنه يبعث على التوتر والألم ٠ كم كان يتحمل أشياء مماثلة وهو في سن معينة ٠ الا أنه الآن ، لم تعد له قدرة على التحمل ٠ أبسط الاشياء تثيره ، لأنه لم تعد له قدرة على قبول أي شيء ، حتى ولو كان هذا الشيء منعه من مصمصة أوراق النعنـع ٠

(ـ هـل من السهولة التخلي عـن هـذين الصبيين ؟ انهما بريئـان ٠

ـ أعرف ذلك ٠

ـ من أجلهما أرجو أن نستمر ٠

ـ لو فعلت شيئاً بسيطا من أجل ذلك !

ـ لقد فعلت الكثير ٠

ـ أنت لم تفعلي شيئاً ٠ يجب أن نفترق ٠

ـ لماذا لاتتحمل ولو قليلا من المتاعب مثلما يتحمل باقي الناس ؟

ـ لم تعد لي القدرة ٠ في السابق ، في سن معينة ، كان بامكاني ذلك ٠)

كانت القرية خالية الآن ٠ الشمس فقط وكلب دلى لسانه الأحمر وهو يلهث ٠ مشى عبد الكريم دون أن يفكر ، تجاه باب مصبوغ بطلاء أخضر باهت ٠ طرق الباب والتفت ليرى بعض التلاميذ الذين ربما تغيب أحد أساتذتهم ، يلعبون بالكرة ٠ طرق الباب فخرجت فتاة صغيرة قذرة ٠ نظرت بعين واحدة بين الجدار والباب ٠

ـ قولي لأبيك : زجاجة واحدة كيفما كان نوعها ٠

ـ لايمكن ٠ لقد مر رجال الدرك أمس واحتجزوا كل الزجاجات بأمر من القايد ٠ لحسن حظنا أنهم لم يأخذوه الى السجن ٠

ـ قولي له : سي عبد الكريم يريد ذلك ٠ أنا متأكد أنهم لم يفتشوا البئر وأنت تعرفين ذلك ، لاتكذبي أيتها الساقطة ٠

ـ لقد فتشوا كل شيء حتى البئر ٠

ـ لاتكذبي ٠ انهم لايعرفون أن في بيتكم بئراً ٠

أغلقت الفتاة الصغيرة الباب في وجه عبد الكريم ٠ وعندما تأخرت عاود الخبط على الباب بدون جدوى ، لأنها لم تفتح ٠

انسحب وهو يشتمها بصوت مرتفع • تذكر بعض زملائه الذين يشروبونأو يطاردون تلميذاتهم•في هذه القريةالصغيرة ليس هناك من اهتمام بسوى السكر أو الزنى•انحنى عبد الكريم والتقط عدة أحجار • أخذ يطوح بها بعيداً • ثم تذكر أن هذا عمل لايليق بأستاذ • لو رآه أي شخص لاعتقد أنه فقد عقله • أرخى ذراعه فهوت قطعة الحجر الأخيرة بهدوء الى الأرض • اذا كانت البئر قد جفت أو فتشها الدركيون فان هناك أندري ومارتين • ابتسم لنفسه • في أحرج الاوقات يستطيع أن يجد لنفسه مخرجاً •

(ـ ان مايعجبني فيك هو صمودك وعنادك •

ـ لست كما تدعين • ولكني فقط أعرف ما أعمل •

ـ ولهذا السبب فاني لا أريد أن نفترق ، نعمل من أجل اسعاد طفلينا •

ـ كان عليك أن تعملي لذلك في السابق • أما الآن ، فليس وقته •)

وقالت مارتين في المساء :

ـ ان مايعجبني فيك هو عنادك •

ـ لقد جفت البئر أو ربما فتشها الدركيون •

ـ ماذا تقول ؟ اني لاأعرف فيم تتحدث •

ـ ليس مهماً •

ـ اشرب • يبدو أنك في حاجة الى ذلك • هل تتذكر زوجتك وطفليك ؟

ـ مثلما تتذكرين أندري الآن •

ـ ليس هنـاك أي وجـه للمقارنة ٠ بالنسبة لي فان أندري يعرف كل شيء ٠

تمـدد عبد الكريم علـى ظهـره ٠ اقتربت مارتين وأخـذت تمر بأصابعها على شعره ، استلذ ذلك أول الأمر ، لكنه في النهاية حرك رأسه وابتعد عنها ٠ وقفت وذهبت الى المطبخ ٠ أحضرت شريحتي لحم ٠ واستمرت تصب لنفسها الكأس تلو الأخرى ٠ كان عبد الكريم يشعر أنـه ليس وحيداً في هـذا العالم ، استطاع أن يتعرف على الكثير من الناس ٠ يعتقد أنهم يحبونه كثيراً ٠ وحتى ولو كان ذلك وهماً فانه يرضيه ٠ اذ كيف نستطيع أن نميز بـين الوهم والحقيقة ٠ وأراد أن يقول ذلك لمارتين لكنه تراجع ٠ وسمعا جرس الباب يرن ٠ ليس أندري على كل حال ٠ لكن

(ـ دع عنك الأوهام ٠ نستطيع أن نتلافى كل مافات ونعيش من جديد من أجل طفلينا ٠

ـ اني لا أتشبث بالأوهام أبداً ٠ لكني أحياناً لاأفرق بينهـا وبين الحقيقـة ٠

ـ تلك هي مشكلتك ٠

ـ أعتقد أنها ليست مشكلتي وحدي٠انها مشكلة أي انسان٠ ستعرفين أنت كذلك هذا اذا ماتمعنت في الأمر جيدا ٠)

سمع عبد الكريم أصواتاً مرتفعة في الخارج ٠ ميز منها صوت مارتين بصعوبة ٠ أخذت الأصوات تقترب ، وأصبح أكثرها حدة هو صوت مارتين ٠ ثم أطلت عليه قامة رئيس الدركيين ٠ كانت مارتين تقول :

ـ ان هذا غير معقول ٠

قال الرئيس لعبد الكريم :

ـ تفضل ٠ خذ معك الزجاجة ٠ أنت متهم بالسكر والخيانة الزوجية ٠

كانت مارتين تصرخ :

ـ غير معقول ٠ عبد الكريم ٠ ان هذا الدركي يريدني لنفسه٠ لقد حاول معي مراراً٠لم أر مثل هذا أبداً٠غيرمعقول٠غير معقول٠ ياله من بلد غريب !

★ ★ ★

جبال وخنازير بريّة

عندما رأى القائد وأعوانه الدوار وهم في أعلى الجبل شعروا أخيرا بالخلاص . لقد سارت سيارات الجيب الثلاث مسافة عشرين كيلو مترا ، في طريق وعرة جدا ، مليئة بالحفر وضيقة. القائد وحده هو الذي يتصبب عرقا ، وتبدو عليه علامات الانهاك لانه لم يتعود هذه الحياة القاسية . أما أعوانه من القوات المساعدة فقد كانوا من أبناء المنطقة ، اشتغلوا بالرعي وتسلقوا الجبال والاشجار ، وبعضهم حارب مع فرنسا في الهند الصينية . بدا الدوار وسط الغابة الكثيفة المحيطة به كبقع بيضاء متفرقة . الا ان بقعة واحدة بيضاء كانت تبدو بوضوح بارزة وسط الاشجار ووسط الدور الصغيرة المتفرقة . كانت البقعة مقهى وفندقا وسكن لمعمر ايطالي ذي جنسية فرنسية ، ورث المكان عن أبيه الذي ابتناه في الاربعينات ومات مقتولا من طرف أحد أعضاء جيش التحرير الذي فاجأه وهو يتجول على بغلة في الغابة المجاورة . أخرج القائد منديله المطرز الحواشي بالاخضر يمسح جبينه وأرنبة أنفه.ثم مرر المنديل تحت ذقنه وحول رقبته . وقال وهو يسعل :

ـ وأخيرا وصلنا ٠

ـ لم نصل بعد يا حضرة القائد ٠

قالها السائق الذي بجانبه وضرب على المقود بأصابعه ضربات خفيفة ٠ لم يجبه القائد ، لانه مشغول بالنظر الى تلك البقع البيضاء المنتشرة وسط الاشجار ٠وتمنى لو كان ذلك المنبسط كله تحت الجبل ملكه وحده ٠ ولكنه يعلم أنه ملك لفخذة توارثته منذ قرون ربما ٠ ومهما حاول ان يزور من الوثائق مثلما فعل ببعض الاراضي فانه لايستطيع الحصول على هذا المنبسط الذي تغطيه الاشجار ٠ كانت سيارة الجيب تهتز فوق الحفر والاحجار في حجم رأس البشر ٠ يتقلقل معها القائد ويبعث زفيرا قويا ويستمر في مسح وجهه بالمنديل ٠ سارت السياراتَ الثلاث ببطء في الطريق الضيقة جدا التي تحفها من الجانبين مرتفعات تشبه الحيطان هي بقايا شق طريق ٠ اختفى الدوار لحين ثم ظهر عندما تجاوزت السيارات الثلاث هذه الحفرة السحيقة وسط الجبل ٠ التفت القائد الى السائق :

ـ كم يتعين علينا أن نقطع الان حتى نصل الى الدوار ؟

ـ لست متأكدا حضرة القائد ٠ أغلب الظن اربعة كيلو مترات كلها التواءات وحفر وأحجار ، ومن يدري ربما تعترضنا صخرة سقطت من اعلى الجبل ٠

ـ فمك لحسه كلب ٠

ابتلعها السائق ، وتظاهر بأنه لم يسمع شيئا ٠ زاد من سرعة

السيارة قليلا ٠ وود لو أنه يفتح الباب ، يقفز من السيارة ويتركها تهوي بهذا الجبان الى الحضيض ٠ وقال للقائد :

ـ حكايةالخنازير الوحشية هذه لنتنتهي مع هذا الدوار ابدا ٠ ان عليهم ان يتسلحوا لكي يدافعوا عن انفسهم ٠

ـ ماذا تقول ايها الوغد ؟ الاتعرف ان حمل السلاح بالنسبة للمدنيين ممنوع ٠ هل تريد ان تزرع ثورة في البلاد ؟

ـ عفوا سيدي ٠ أنا لم أقصد ٠٠٠

ـ انظر أمامك واسكت ٠

مرقت أمام الجيب ثلاثة أرانب بيضاء ومخططة بالاسود ٠ ثم اختفت في دغل على جانب الطريق ٠ تنهد السائق وقال :

ـ انه مكان صالح للصيد ياسيدي ٠

ـ ألا تعرف انه لم يحن بعد موسم صيد الأرانب ؟ و٠٠ ان من قام بذلك للآن تلزمه عقوبة ؟ ٠٠٠ قلت لك أنظر أمامك واسكت ٠

كانت بعض الاشجار التي لاتعطي ثمارا ، معلقة في الجبل وعلى صخوره وأحيانا خلف نتوءات الجبل لايظهر منها الا الرأس أخضر متفتحاً في فضاء فسيح واسع ورمادي ٠ القائد وحده يتمتع باجالة النظر في كل هذه الاشياء ٠ والسيارات الثلاث تسير الان ببطء شديد حتى انها تكاد تصطدم ببعضها ٠ ترتفع قليلا ثم تهوي فيبعض الحفر ، فيكاد المقود ينفلت من يدي السائق ٠ التفت القائد الى الخلف ، وطل من خلال النافذة المشبكة ، فرأى بعض رجال قواته والسلاح بين سيقانهم وهم يكادون أن يناموا صرخ من النافذة بصوت غاضب :

ـ أنت هناك ٠ الم تنم بمافيه الكفاية ليلة امس ؟

ارتعد الرجل وجمع ساقيه وامسك بيدين حديديتين على بندقيته ٠ تظاهر بالمسكنة ٠ صحيح انه لم ينم بما فيه الكفاية ليلة أمس ، لأنه حرس المركز من الثانية صباحا حتى السادسة ، والقائد دبطبيعة الحال يعرف ذلك ٠ لكنه يصر على فرض سلطة معينة حتى يبدو رجلا قويا ٠ لقد صرخ في وجه الرجل لكنه لم يعر اهتماما لنتيجة صراخه ٠ المهم ان يصرخ القائد متى ماأتيحت له أدنى فرصة لذلك ٠ جفف القائد بعض العرق على وجهه ورقبته السمينة ٠ شعر انه يقسو كثيرا ٠ وحاول ان يبدو لطيفا شيئا ما ٠ غير ملامح وجهه وابتسم لنفسه لكنه أحس أن تلك الابتسامة ليست حقيقية ٠ وأراد أن يعوض عن انفعاله بحركات من يديه قال للسائق بجانبه :

ـ يمكنك أن تدخن ٠

ـ اني انتبه للطريق ، سيدي ٠

ـ لايهم ٠

ـ اني ادخن كثيرا مع ذلك ٠٠

ـ ومع ذلك ماذا ؟ قلت لايهم ٠ دخن ٠ لكن لاتنفث دخانك في وجهي ٠

ـ حاشى لك سيدي ٠

أخذ يفتش السائق في جيبه عن العلبة ٠ اخرجها والصق سيجارة بين شفتيه ٠ ظلت السيجارة ملصقة بين شفتيه لوقت طويل ٠ تردد كثيرا في اخراج علبة الثقاب من جيبه ٠ لم يكن يعرف سبب هذا التردد ٠ ربما خاف من القائد ٠ يمكنه ان يتراجع عن

وجهة نظره ، كأن يقول مثلا : « ايها الكلب ! من قال لك دخن ؟ »
وقال السائق في داخله :«الكلب هو أبوك ٠» وأضاف «أعوذ بالله ٠»
أخذت عضلات وجه القائد ترتخي قليلا ، تتمطط، علامة على مسرة
حقيقية ، وغير مفتعلة ٠ قال القائد لنفسه : « يكفي المرء ان يقنع
نفسه بشيء حتى لو كان مستحيلا ، فيتحقق هذا الشيء ، على
الاقل في الحلم ٠ » شعر انه حقق شيئا ليس مستحيلا ، لكنه ليس
في مقدور أي انسان ان يفعله ٠ ان تنتقل من حالة نفسية لاخرى
بدافع تلقائي ٠ ثم أخذ يضرب باصابع يده اليمنى على ركبتيه ٠
لكنه كف عن ذلك ، معتقدا ان هذه اللعبة لاتليق برجل محترم مثله
وامام تابع له ٠ وقع في مأزق فالتفت عن يمينه يتفرج على الصخور
الناتئة والاشجار القصيرة المتشابكة ، اماكن معينة من الجبل ٠
فكر لو أنه طلب الانتقال من هذه المنطقة الوعرة والتحق باحدى
العمالات في المدن ٠ غير انه ادرك بغريزة كلب ان الامر سيختلف
كثيرا عما هو عليه هنا ٠ ستنزع منه كثير من الامتيازات سيفرض
عليه الحضور في الثامنة صباحا ، سيضطر الى الانحناء كل صباح
احتراما لسعادة العامل ، ستصم أذنيه الاوامر الجهنمية الوقحة
عن طريق التلفون أحس أنه في وضع مريح هنا٠وانه الاول والاخير٠
اخذ يضرب من جديد باصابع يده اليمنى على ركبته مبعدا صورة
الحرج من ذهنه ٠ التفت الى السائق وخاطبه باسمه هذه المرة :

ـ عـلال ، اشعل سيجارتـك ٠ هـل مايزال الطريـق أمامنا
طويـلا ؟

ـ ثلاثة كيلو مترات ، سيدي ٠

شعر السائق ان القائد تغير نوعا ما • تلك عادته • ان المرء لايكاد يحكم عليه حكما نهائيا انه يغضب كثيرا اوفي اغلب الاوقات لكن أحيانا تتلبسه حالات طيبة لاتتصور يصبح كريما ،متسامحا • سيدي زوجتي مريضة • شفاها الله ! خذ هذه المائة درهم • سيدي لقد تعبت كثيرا • اني لم انم منذ يومين فهمت فهمت • خذ لك اسبوعا راحة • الله يكون في عونكم • اني اعرف انكم تتعبون • وانت ياعبد القادر ، مايزال ابنك يحصل دائما على المرتبة الثانية في الصف ؟ نعم سيدي • ـ خذ كيس الدقيق ذاك واعتن كثيرا بعائلتك • لاسند لانسان في هذا العالم سوى عائلته • حتى الله لا يمكنه أن يقف بجانبك في اللحظات الحرجة بل البشر • وأنصح ابن عمك بان يبتعد عن السياسة • ولولا اخلاصك وجديتك لكنت قد قبرته في السجن •

اخرج السائق علبة الثقاب وبصعوبة اشعل لنفسه واحدة نظر في المرآة عن يساره • لم ير أثراً للسيارتين • التفت الى القائد :

ـ سيدي • السيارتان اختفتا •

ـ ماذا تقول ؟

ـ السيارتان ، لاأراهما •

ـ عليك ان تسير ببطء • ستلحقان بنا من غير شك الطريق صعبة ومليئة بالاحجار والحفر •

ـ نعم سيدي • أحجار بحجم رؤوس البشر •

وقال القائد :

ـ هل تعرف اني مسرور جدا بينكم في هذه المنطقة ان خمس

سنوات مرة بسرعة كما لو كانت يوما وليلة ٠

ـ انها منطقة رائعة وأهلها طيبون كما عرفتهم ياسيدي ٠

ـ صحيح ٠ لولا مضايقات هذه الخنازير البرية في كل موسم ٠

ـ لقد كان ذلك منذ القديم سيدي ٠ حتى قبل الاستقلال الا ان الحوادث لم تكن بنفس الحدة الان٠فقد كان الفرنسيون يصطادون هذه الخنازير ويطبخونها ٠ هل ذقت لحمها سيدي ؟

ـ لا ٠٠

ـ ان لحم هذ ةالخنازير البرية لذيذ ٠ الذ من طعم البقر ٠ ولكن الناس لايأكلونه لانه حرام ٠ ماهي الاية التي تحرم الخنزير ياسيدي ؟

لم يجبه القائد٠بل اخذ ينظر الى تحت٠اعجبه ذلك المستطيل تحت قدم الجبل المحروث بعناية والمحاط بسياج من الاشجار القصيرة ، التي لاشك انها شائلة ٠ التربة داكنة السمرة ، تقترب من السواد ٠ مثل هذه البقع الصالحة للحرث قليلة هنا ٠ أحياناً يضطر الناس الى ايجاد بقع معينة في جنبات الجبل لحرثها أو لغرس أشجار اللوز أو الزيتون فيها ٠ وفكر ان هذا المستطيل الصغير تحت الجبل ربما كان المورد المالي الوحيد لعدد كبير من العائلات ٠ وعندما اهتزت السيارة من جديد ، انتقض القائد ، ونظر الى الامام ٠ وقال للسائق :

ـ يمكنك ان تتوقف ، حتى ننتظر الاخرين ٠

ـ ربما كان كثير من الجرحى ينتظروننا الان سيدي ٠

ـ لا يهم ٠ مافات مات ٠ ثم انهم متعودون على هذا النوع من الحوادث كل سنة ان عليهم أن يتسلحوا ٠

أدرك القائد أنه ارتكب خطأ ٠ نظر الى السائق ، فاضطرب هذا الاخير ، وحك جبهته من الانفعال ٠ وأضاف القائد بسرعة وهو يتلعثـم :

ـ بالعصي ٠ ان يتسلحوا بالعصي ٠ الا يمكنهم ان يطرودا الخنازير بالعصي ٠

ـ انها قوية ياسيدي٠ثم انها تهجم جماعات جماعات وحتى لو وجهت لها الرصاص فانها تستمر فيهجومها هل اتوقف سيدي؟

ـ نعم ٠ حتى يلتحق بنا الاخرون ٠

تنحى السائق يمينا ببطء وحذر شديدين ٠ الطريق ضيقة لا تتسع الا لسيارتين ٠ واحيانا لاتتسع الا لسيارة واحدة ٠ واحيانـا يلزم التوقف لمدة ساعة على الاقل لازاحة بعض الاحجار أو قطـع الجبل التي تسقطهـا سيول الامطار أو غيرهـا مـن الاعلى وهـذه الطريق الثانوية ليستمرقمة لدى مصالح وزارة الاشغال العمومية٠ وقد حفرها السكان تحت سياط قبطان فرنسي بفؤوسهم واظافرهم مدة سنة ، عندما حاولوا ان يتمردوا على اثـر اطـلاق رصاصة في المنطقة قبل ثلاثين سنة ٠ القائد لايعرف هذا فتح الباب وقفز الى جانب الطريق ٠ ذهب الى مؤخرة الجيب وأمر الرجال بالنزول لكي يشموا قليلا من الهواء حتى يلتحق بهم الاخرون قفز الرجال واحدا واحـدا الى الارض وبنادقهم في ايديهم بـدأ على وجوه بعضـهم الانهاك ٠ تفرقوا ثم تجمعوا انسل احدهم وسط اغصان شـجيرة

قصيرة متمسكة بالارض غضبا ، جلس خلفها فظهرت قبعته الخضراء الباهتة مثل فاكهة ٠ وسمعت شرشرة خلف الشجيرة ، وسمعت خشخشات بعض الحيوانات أثارتها حركة الرجل قال أحد الرجال :

ـ ماذا سنفعل لهذه الخنازير الملعونة ٠ لقد قتلت من قتلت وجرحت من جرحت ٠ هل سنذهب لنطاردها في الغابة ؟

أجاب آخر :

ـ انها الاوامر ٠القائد يريد أن يتظاهر بأنه يحميهم ٠ولو أراد ذلك فعلا لسلحهم ٠ هل تعرف انه يمنع عنهم حتى بنادق الصيد ؟

ـ اسكت انه هناك ٠ لو سمعك تتحدث عنه لقطع لسانك ٠

ـ طز عليه ٠

ـ هل تستطيع ان تقولها في وجهه ؟

ـ نعم ٠

اقترب القائد ويداه حول خاصرتيه ٠ يتشمم الهواء بطريقة مسرحية ٠ ويمشي بطريقة أظهرت جسده كآلة مفككة لم يحكم شد محازقها ٠ وعندما نظر الى الرجال قال الاخر لصديقه :

ـ قلها في وجهه اذن ٠

قال الاخر :

ـ استطيع ان اقولها ٠ هل تعتقد اني جبان وخائف مثلك ؟

ثم قال للقائد :

ـ سيدي! لاشك ان حكاية الخنازير هذه تتعبك في كل موسم ٠

سنحاول ماأمكن مطاردتها٠يمكنك ان تترك بعضا منا حول القرية مدة خمسة عشر يوما لحمايتها ٠

لـم يهتم القائـد لاقتراح الرجل ، في حين فوجىء بصديقـه يشتمه بصوت منخفض : « اسكت ياولد ٠٠٠ » ٠ انها فكرة جيدة مـن النوع الـذي يروق للقائـد أن يتشبث بـه ، ولكـن هديـر السيارتين القادمتين هو الذي جعله لايعير اهتماما للاقتراح ٠ كانتا تتمايلان مثل سلحفاتين كبيرتين ٠ ضرب القائد كفا بكف ومشى بعيدا قليلا عن الرجـال وقف الـذي كان خلف الشجيرة واخذ يزرر بنطلونه وبندقيته بين فخذيه ٠ توقفت السيارتان متحاذيتين ٠ قال السائق الاول دون أن يسأل :

ـ لقد تعطلت احدىالعجلات واضطررنا لاستبدالها ياسيدي٠

قال القائـد :

ـ متى سنصل اذن ؟ أمامنا طريق العودة ٠ هل تريدون أن نقضي ثلاثة ايام للوصول الى القرية ؟

ثم صعد الى الجيب وصفق الباب بعنف ٠ ركض الرجال وراءه وألقوا بأنفسهم في الخلف ٠ تحركت الجيب الاولى ، هدر محركها بحشرجة وتبعتها السيارتان الاخريان ٠ اصبحت الطريق منحنية الى الاسفل بشكل مخيف ممـا اضطر السائقين الثلاثـة الى بـذل مجهود للتحكم فيالسيارات٠٠انهذا المنحدر هوالعلامةالوحيدة على أن القرية قريبة جداً ـ كانت أمعاء كلب معفر في التراب ملتصقة بالارض ٠ ليس لها لون ولكن ، يمكن ان تكون لها رائحة ٠ داسته عجلة السيارة لانه لم يكن هناك امكانية تجنب ذلك شعر القائد

بهذا فلم يعلق بشيء عندما اهتـزت السيارة على اثر الارتـطام برأس الكلب ٠

لكنه قال فيما بعد :

ـ هل تعرف ان رأس كلب يمكنه ان يقلب سيارة ؟!

ـ نعم سيدي ٠ اذا كانت سرعتها تفوق المائة في الساعة ٠

ـ اني اعرف صديقا مات بحادثة من هذا النوع ٠أف ٠ لايهم ٠ كم بقي من الوقت لكي نصل ؟

ـ لقد وصلنا تقريبا ، بضعة دقائق ونصل ٠

ـ ان امامنا عملا متعبا ٠ نقل الجرحى ٠ مطاردة الخنازير ٠

ـ الخنازير تكون قد فرت واختفت في الغابة ٠يستحيل سيدي البحث عنها ٠ يجب اعطاء الاوامـر لحراس الغابـة حتى يتكلفوا بمطاردتها ٠

ـ ذلك صحيح ٠

زفر القائد وحك قنة رأسه بسبابته ٠ نظر عن يمينه ٠ لـم يكن هناك شيء يثير الانتباه ٠ فقط نفس العالم : الاحجار الكبيرة والاشجار الصغيرة ، وطائر لا يعرف لـه اسم يحوم في الفضاء ٠ السيارة تستمر في انحدارها ثم بعـد منحرف صغير بـدا المقهى واستوت الطريق واتسعت حول المقهى بنايات بيضاء هي عبارة عـن حوانيت ودور سكن تحفهـا النباتات الخضراء التي تكـاد تغطيها نهائيا ٠ سارت السيارات الثلاث في الطريق أمام المقهى فأثارت الغبار من خلفها ٠ ركض الاطفال وراءها في خوف وتبعهم بعض النساء الحافيات والرجال الحفاة ٠ اخترقت سيارة القائـد

مجموعة مـن الناس ٠ تشتتت الحلقـة ٠ وراحت بعض النسوة يندبن ويولولن ، عندما قفز القائد من الجيب تبعه رجاله ووسعوا الحلقة بمؤخرات بنادقهم ٠ ارتمت أمرأة مسنة على قدم القائد تقبلها في شبه هذيان ٠ دفعها دفعة خفيفة وأخـذ ينظر بألم الى ستة من الرجال ممددين فوق التراب ٠ أمسك أحد الرجال المسلحين المـرأة من ثوبهـا القذر وجرهـا برفق حتى تنضم الى الآخرين ٠ التفت القائد الى حلقة الناس وأخذ يحاول أن ينظر اليهم واحداً فواحداً ، كأنه يعتذر لهم عما حل بهم ، أو كأنـه يشرح لهم أن الأمر ليس بيده ٠ ولكنها الخنازير الملعونة هي المسؤولة ٠ أو ربما هناك شيء آخر مسؤول عن كل هذه الاشياء التي تقع مثل انهيار جزء من الجبل أو تدفق سيل مـن الاعلى أو هبوب عاصفة تحطم الاشجار وتذهب بأسقف البيوت ٠ ثم اخترق رجل المجموعـة وفي يـده محفظة قذرة ، مثل تلك التي يحملهـا التلاميذ الفقـراء في الاحياء الخلفية ، وعلى عينيه نظارة مشدود أحد طرفيها بقطعة ثوب الى أذنه ٠ انحنى الرجل على يد القائد يقبلها ٠ وقف بتهيب أمامه ٠ قال للقائـد :

ـ لقد وقع ذلك هـذا الصباح يا سيدي ٠ وحاولت أن أتصل بكم تلفونياً مراراً ٠ لكـن التلفون في أغلب الاحيـان يكون معطلا في المقهى ٠

ـ ليس هناك مشكل ٠ هل مات أحد ؟

ـ لا يا سيدي ٠ ليس هناك مشكل ٠ لـم يمت أحـد ٠ فقط هؤلاء الجرحى يبدو أنهم في حالة سيئة ٠

ـ سنأخذهم الى المركز الصحي في القيادة ٠

أشار بيده الى الرجال ونظـر الى السيارات ، رفع الجرحى عن الارض بسرعة وهم يئنون ٠ ثم ألقى بهم داخل السيارات ٠ فكر القائد أن يدخل المقهى لكي يتناول مبرداً لكنـه تذكر هؤلاء الذين يتجمعون حوله ٠ كيف يمكنه أن يصرفهم من حوله ٠ عدل عن ذلك ومشى نحو الجيب وصفق الباب بقوة من خلفه ٠ تحركت السيارات الثلاث ودارت في الساحة حول نفسها ٠ شتتت المجموعة وأثارت الغبار مـن خلفها ٠ أخـذ بعض الصغار والكبار يحكون أعينهم بظهور أكفهم وارتفع النشيج ، تحول الى بكاء وعويل ٠

قال السائق للقائـد :

ـ يلزمنا وقت لكي نصل الى المركز الصحي يا سيدي ٠

ـ لا يهم ٠ هات علبة الثقاب ٠

أشعل لنفسه سيجارة امريكية ٠ جذب النفس بعمق كما لو كان قد قضى على أكبر مشكلة تؤرقه ٠ أخذت السيارات الثلاث تتمايل الى أعلى مثل السلاحف : بلونها الاخضر الباهت ٠ وعندما تعب الاطفال من الركض وراءها وقفوا يلهثون حفاة تحت الغبار ٠ لوح أحدهم بيده لها ٠ لكـن لا أحـد يرد عليـه ٠ تجمع الناس في الساحة حول الرجل ذي النظارة ٠ قالت امرأة :

ـ أخشى ألا يعودوا ٠ لقد مات كل من جرح في السنة الماضية عندما نقلوا الى مركز القيادة٠ وقال رجل للمقدم صاحب النظارة :

ـ لماذا اتصلت بهم تلفونياً ٠ كنا يمكننـا أن نتدبر أمرنا وحدنا ٠ نداويهم بالاعشاب واللبيخات والكي ٠

قال المقدم :

ـ انني مسؤول يجب أن أخبر عن كل ما يقع هنا ٠

ـ انهم سيموتون ٠

ـ كان عليك أن تقول ذلك للقائد قبل لحظة ٠ كان عليكم أن تحموا أنفسكم من الخنازير البرية ٠ وقالت المرأة التي تولول :

ـ ناري ! وليدي سيموت ٠

قال المقدم :

ـ هيا تفرقوا ٠

ثم سوى وضع نظارتيه على أرنبة أنفه ٠ ومشي ومحفظته القذرة تتدلى من يده حتى تكاد تلامس الارض لقصر قامته ٠ كان بعضهم يتحدث وكان البعض الآخر يتبعه وهو يطلق كلمات في الهواء ، من الأكيد أنه كان يسمعها ، ولا يعيرها أدنى اهتمام ٠

* * *

الأقوى

أخذ الأطفال يهللون وهم يتطلعون اليه ، متشعبطاً في العمود الكهربائي • شجعوه بالصفير والتصفيقات وكلمات الاهانة التي تنقص من شجاعة • كان يتحداهم ويستمر في تسلق العمود الكهربائي • ثم فجأة يرفض التيار الكهربائي اللحم البشري ، فيسقط قويدر مصطدماً بالأرض وهو يبكي • فر الجميع بعد أن تأملوه لحظة • تركوه وحده يتألم ويستنجد ثم بعد شهرين في مستشفى حكومي ، أصبح يسمى بويدية •

قالت فاطنة :

ـ حتى الحكومة تخافه • يقال انه يتحكم في الدوار كله • ومع ذلك فهو يخاف ولدي •

ردت جارتها :

ـ يجب أن تحذري • لاتتحدثي عن بويدية بسوء أبداً • انه يستطيع أن يسمع كل مايقال عنه بطريقته الخاصة • فآذانه منتشرة في كل مكان •

ـ ان ولدي أقوى منه ويستطع أن يبتر له اليد الأخرى ٠

ـ أنت تتكلمين فقط ٠ اذا أردت أن تفقدي ولدك فواجهيه مع بويدية وسترين ،

ـ اني لاأزال أتذكر أنهما عندما كانا صغيرين ، كانت أم بويدية تأتيني دائماً شاكية باكية ٠ وتدعي أن ولدي خبط ابنها على الارض مراراً حتى أفقده وعيه ٠

ـ بويدية صار الآن رجلا ٠ وهـو يستطيع أن يقف في وجـه جيش بأكمله ٠

وقالت فاطنة ٠ بصوت مرتفع :

ـ يلعن أبوه ٠ وهاأنا أقولها بصوت مرتفع ٠

بويدية اذن يزرع الرعب ٠ كان عنيفا متحدياً منذ الصغر ٠ تستطيع أن تضربه بالأرض المرة تلو الأخـرى لكنـه لاينهزم ٠ يكرر التحدي ٠ يعتقد أنه أقوى انسان في المنطقة ، بل في العالم كله ٠ « اضرب فلحمي ميت ٠ ولكن امّا بي أو بك ٠ اختر ما دمت تريد أن تتحدى بويدية ٠ الموت لي أو لك ٠ »

قال سي امحمد البقال :

ـ من يدّع القوة يمت ضعيفاً ٠

أجاب البقال المقابل له :

ـ لم يكن بويدية يدعي القوة فقط ٠ ولكنه كان يدعي ماهو أكبر من القوة ٠ لذلك قتلوه شر قتلة ٠ لارحمة الله عليه ٠

ـ لكنه لم يؤذنا قط ٠

ـ لأننا جيران والديه ربمـا ٠

ـ اليس له أب ٠ يقال ان أمه حملت به من رجل آخر ٠

ـ احذر أن يسمعنا ٠

ـ كيف ذلك ؟ هل نخاف منه حتى وهو في قبره ؟

ـ آه ! نسيت أنه قد مات ٠

قيل ان الروح عزيزة عند الله ٠ وأن من قتل بغير حق لابد وأن يموت بحق ٠ فبويدية قتل بدون حق ، ولذلك كان موته بحق ٠ ويعلم الكثير أنه قتل ثلاثة أو أربعة أشخاص في حياته، لكن لاأحد يستطيع أن يشي به ٠ كلهم يصمتون عن القتل ولايصمتون عن الطعن في أعراض بعضهم البعض ٠ ولأنهم مسالمون فهم يغتابون بعضهم ويرضون بذلك،ان تغتب تغتب٠ اياك أن تغتاب بويدية، فهو يسمعك حتى لو كان داخل السجن ٠ آذانه طويلة عريضة تلتقط كل شيء ، حتى همسات الناس في الفراش ، وهم في خلوة بعيداً عن العالم ٠ ان ما تقوله الزوجة لزوجها يسمعه بويدية ، وما يقول الزوج للزوجة يبلغ بويدية بهذه الطريقة أو تلك ٠ لكن كل من يدّع القوة يمت ضعيفاً ٠

وقال رجل :

ـ يقال انه دخن كثيرا من الكيف وشرب كثيرا من الخمر قبل أن يقدم على قتل مسعود ٠

ورد آخر :

ـ ان أصحابه دخنوا وشربوا أكثر منه ٠

وقال آخر :

ـ لم يكونوا يريدون قتله ٠ لكن مسعود ـ يرحمه الله ـ كان عنيداً وحاول أن يتحداهم ، فانغرز رأس الحديدة المدببة في رأسه٠ مات بعد أن فركل بقدميه لحظات معدودة ٠

ـ سمعت أنهم قتلوه من أجل ثلاثمائة درهم ٠ ماأقبح أن يقتل الانسان أو يموت بهذا الثمن البخس !

وفي الواقع ، فان بويدية يستطيع أن يقتل أو يجرح أو يعتدي لا لشيء الا لمجرد العناد والتحدي ٠ ألم يكن هو الأقوى في الدوار بل في العالم ؟ ان كلمة الأقوى يجب أن تسمع مهما كان الأمر ٠

عندما بلغ أمه خبر وفاته ، خرجت تضرب فخذيها وتلطم وجها وتتمرغ في الترا ب وتقول بأنها فقدت أحسن الرجال ٠ لكن النساء ـ كعادتهن ـ لم يبكين ولم يلطمن أفخاذهن معها ٠ بل كن بدافع التشفي ، ينظرن اليها في حقد وهن يطللن من خلف فجوات الأبواب ٠ لم تكن امرأة في السابق تستطع أن تقع في مشادة معها ٠ فبويدية ، يمكنه أن يشوه وجوه الازواج وان يغتصب النساء والأطفال الصغار ٠ استمرت أمه في اللطم والبكاء والأنين حتى فقدت وعيها ، وفركلت للمرة الاخيرة كما لو كانت تحتضر ٠ولم تخرج امرأة لتشممها البصل ٠كان فمها ووجهها معفرين بالتراب وهي تتنفس بهدوء ٠ وخرج زوجها المسلول وهو يتعثر ٠ ثم جرها من قدميها بصعوبة نحو باب الكوخ ٠وكما لو كانت تفتعل هذه العادة فتحت عينيها وقالت له : « اتركني ياولد الفاعلة ٠ » تركها الزوج ممددة على التراب ٠وجلس تحت ظل الكوخ القصديري أخرج السبسي والمطوي وأخذ يدخن الكيف وهو يسعل ٠ عاودت الفركلة مرة اخرى وبدأت تهذي ، ثم ارتخت نهائياً ٠

وقالت امرأة لجارتها :

ـ انها أكثر شرا من ولدها ٠

ـ أتمنى أن تموت ٠ ان عندي كيلو غـرامين مـن البصل ٠ والله لن أشمم لها واحـدة ٠

ـ دعيهـا تموت ٠

ـ لن تمو ت، فهي أقوى من عفريتة ٠ من يدع القوة يمت ضعيفاً ٠ لا بد وأن تنغرز في جسدها سكين حادة ذات يوم ٠

تحامل الزوج على نفسه ٠ بعد أن أعاد السبسي الى جيبه ٠ فتح الباب على مصراعيه ٠ أمسكها من قدميها وجرها الى فناء الكوخ ٠ لم تبد أي تمنع ٠ بقي منديل رأسها في التراب ٠ التقطه الزوج وألقاه على وجهها لكي يقيها لفح الشمس الحارة ٠ أغلـق الباب خلفها وخرج يتعثر فوق الحفر والجلط المائية ٠ مر بمجموعة من الأطفال فتحلقوا حوله ثم تفرقوا ٠ وتحدثوا لبعضهم ٠ كم من واحد منهم تمنى لو يكن هو بويدية حتى ولو كان الثمن ميتة مثل ميتته ٠ المهم أن يثبت الانسان وجوده ويعلنه للعالم بكل الطرق٠ وسمع الزوج طفلين يتحدثان بصوت مرتفع ، والغالب أنهما كانـا يتحدثان عن طفل في مثل سنهما اعتدى عليهما ٠

أجاب الآخـر :

ـ سنقتله وسندخل السجن٠وعندما نخرج تكون لنا شوارب٠

ـ وسنصبح قويين ٠

ـ مثل بويدية ٠

ـ سيخافنا الجميع ٠

ـ وسنسكر وننزع من الناس الفلوس ونعتدي على الفتيات وخصوصاً على أخت عباس لأنها سمينة وتطردنا كل يوم من باب كوخهـم ٠

مشى الزوج يتعثر متثاقلا ٠ أنهكه المرض ٠ كان يبدو بـلا انفعال ،كأن لم يؤثر فيه موت أو اغماء امرأة٠ فدماغه شبه مخدر بلا أحلام ٠ عرج يميناً فدخل الزقاق ، وواجهته الحوانيت وقدتجمع حولها الكثير من الناس ، جلسوا على التراب ، بعضهم يتأمل أو يجتر ذكريات البادية القديمة ، وبعضهم يلعب الورق أو الضامة٠ توقف عند أحد الحوانيت وترك جسده يتهاوى على الأرض ٠ قال البقـال :

ـ لقد فعلها بويدية ٠

ـ فعلها لنفسه ، تحمل مسؤوليته ٠

كانت نبرة صوته حيادية كأن الأمر لايتعلق بابنه ٠ فهو في قرارة نفسه ، يشعر أن ليست هناك علاقة بينه وبين بويدية ٠ أحياناً ينتابه الشك في أنه لم يلده ٠ ان عنده فكرة عن الخادمات بأنهن مومسات ٠ وبما أن أم بويدية كانت خادمة فلا شك أنهـا حملت به من رجل آخـر ٠ ثـم هناك الاختـلاف الكبير بينـه وبين بويدية ٠واحد مسالم ، هادىء ، كسول ، لم يشتغل في حياته الا لماماً ٠ أما الآخر فقاتل وعنيف وعنيد ٠ لكن مـن يدّع القوة يمت ضعيفـاً ٠

قال البقـال :

ـ لقد كان مسعود طيباً ، ويعمل من أجل خمسة أولاد وزوجة حامل ٠

ـ يرحمه الله ٠ لو لم يقتل بويدية لقتلني أبناء مسعود فيما

بعد ٠ وأنا لاأريد أن أذهب ضحية أحد٠ اني أريد أن أعيش أعواماً أخـرى ٠

رفع رجل رأسه ٠ كان منشغلا بالنظر الى الأوراق في يـده ٠ وقـــال :

ـ ان بويدية لايموت ٠ هل تعلمان أن الناس عندما طاردوه ظلوا يضربونه بالعصي والبالات على كتفيه وجمجمته ٠ لكنه لـم يمت ٠ فقد ظل والدماء تسيل على وجهه يلوح بسلسلة حديدية في أوجههم ، وقد أصاب منهم ثلاثة ٠ لكن ضربـة الفأس هي التي قضت عليه نهائياً ٠ فقد تركت حفرة كبيرة في رأسه ٠ وعلى اثرها هوى الى الأرض وهو يردد سأقتلكم كلكم ٠ بويدية هو الأقوى ٠ لكنه لفظ أنفاسه ٠

حتى هذا الوصف لمقتل بويدية ـ الذي كان يعرفه والده ـ لم يؤثر فيه ٠ بدا حيادياً جداً ٠ أدخل يده في فتحة جلابيته ، وأخرج السبسي والمطوي وملأله شققاً٠دخن بهدوء ومد السبسي الى الرجل الذ يلعب الورق ٠ دخن منه هذا الأخير وأعاده اليه ٠

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي اعتدي فيها على مسعود من طرف بويدية٠ فهو في كل شهر مضطر مثـل باقي أصـحاب الحوانيت الى دفع غرامة مالية ٠ لكن الغرامـة كانت مرتفعـة ، بدعوى أن حانوته مليء بالسلع المتنوعة ، وله زبائن كثر ٠ عندما كان مسعود يبدي أي تبرم ، فان بويدية يخرج رأس سكينه من تحت معطفه الاسود القذر الذي لايغيرهأبداً ٠ولايفوه بكلمة ٠كانت رأس السكين تنوب فيالحديث عنه ثم يدخلرأس السكين ويتسلم

المبلغ وينصرف ٠ لكن في المرة الأخيرة، قرر مسعود أن يرى السكين لارأسها ٠ الى متى سيظل يدفع هذه الغرامة ؟ لكن بويدية قال :

ـ طيب ٠ لاتريد ان تدفع مائة درهم ؟

ـ لا ٠ أنا رب عائلة ٠ أدفع لرجال الضريبة ، أدفع رشوة للمقدم ٠ ثم لك أنت أيضاً ٠ أنا لا أشتغل بالسوق السوداء ٠ ثم اني لااملك بنكاً ٠

ـ طيب ٠ ستدفع مائة درهم ٠

لوح بويدية بالسكين اللامعة في الهواء ٠ كان القتلة الثلاثة خلفه ينظرون في صمت ولا يتدخلون في الحديث ٠ اذا تحدث بويدية ففيه الكفاية ٠ انهم لايتدخلون الا بالسلاسل والسكاكين أو اللكمات ٠ وقال بويدية :

ـ هذه السكين سوف تفصل رأسك عن جسدك ٠ أو تلك الحديدة ٠

التفت الى الثلاثة خلفه :

ـ أرها له حتى يعرف أننا لانمزح ٠

ولمسعود :

ـ ستنغرز الحديدة في قنة رأسك ٠

قال مسعود :

ـ لن أدفع حتى ولو كان في ذلك حتفي ٠يتم أولادي اذا شئت ٠

ـ طيب ٠ ستدفع ثلاثمائة درهم ٠

ـ لن أدفع ٠

ارتمى بويدية على مسعود وقبض على رقبته بقوة وجذبه الى خارج الحانوت • حاول مسعود أن يقاوم • مد يده الى هراوة في زاوية • وقبل أن يهوي على بويدية ، سقط مسعود أرضاً وهو يتمرغ في دمه •

وقال البقال للأب :

ـ ليس وحده هو الذي يفعل ذلك • كلهم يتشبهون الآن بقتلة الأفلام •

ـ أنا لم أر فيلماً في حياتي• الآن فقط ، فهمت لماذا كان يصر على مشاهدة الأفلام • هل هي التي تعلمهم ؟

لا أحد يدري كيف تجرأ الناس على مطاردته وقتله ، بالرغم من أنهم كانوا يخافونه • في البدء أخذ الذين طاردوه يهمهمون • ثم أصبحت الهمهمة احتجاجاً بأصوات مرتفعة • وقالت امرأة وهي ترى مسعود متمرغا في دمه :

ـ والله لم يبق هناك رجال • يقتل ويمضي الى حال سبيله والرجال ينظرون اليه •

وقالت أخرى :

ـ اصمتي ياأختي والا سمعك •

ـ لن يستطيع أن يؤذيني • واذا فعل فاني أهشم رأسه بيد المهراس •

ـ انه لن يعطيك الفرصة حتى تهشمي رأسه •

ـ الله الله ٠ لم يبق هناك رجال ٠

قال أحدهم :

ـ معها حق ٠ لم نعـد رجالا ٠

ورد آخر :

ـ أنا امرأة ٠ ابدأ أنت أيها الرجل ٠ ابدأ قبل أن يختفي ٠

ـ ولماذا لأبدأ ؟ لماذا لانبدأ ؟

دخل الى كوخه وخرج بهراوة غليظة الرأس ٠ تفرق الرجال وفعلوا مثله ٠ وبسرعة فائقة انقضوا على بويدية ٠ ظل يقاوم ، في حين فر القتلة الثلاثة ٠ انهالوا عليـه ورفسوه ٠ كانت ضربة الفأس من الخلف قوية ٠ لم يملك أمامها بويدية الا أن يستسلم لضعف قواه ، بالرغم من أن وعيده ظل مستمراً حتى لفظ أنفاسه٠ ان الشرطة نفسها تتجنب شره، الاذا ارتكب جريمة لاتخفى على عين أحد ٠جريمة تفوح رائحتها وتكون فيها اهانة للسلطة٠اذ ذاك يعتقلونـه ويودعونـه السجن شهـراً أو شهرين ٠ والكل يخـاف من أن يصبح أولاده من بعده يتامى مشردين ٠ كم من شرطي قتل في حادث من ذلك النوع من الحوادث ، فأصبحت زوجته من بعده مومساً ٠ والكل يقول : « ذلك جزاء تهوره ٠ لم يرد أن يأكل القوت وينتظر الموت ٠ » أما هذه المرة ، فبعد مقتل بويدية ، حضر رجال الشرطة بعد أن تأكدوا من الوفاة ، لأنهم لايحضرون الا اذا كانت هناك وفاة ٠ فالمشادات في تلك الأحياء لاتنتهي أبداً،ويلزم تجنيد كل أجهزة الشرطة لفض تلك الخصومات في حي واحد فقط ٠

عندما حملت سيارة الاسعاف جثتي مسعود وبويدية ، تحلق كثير من الخلق حول سيارة الشرطـة • وأمر الضابط أعوانـه أن يفتشوا عن صاحب الفأس فجيء به بسرعة •

وقال الضابط للرجل الذي كان يرتعد :

ـ لاتخف • سنأخذك معنا من أجل تحقيق بسيط وروتيني • حسناً فعلت عندما قتلت ذلك الأبتر المشؤوم •

ركب الرجل الجيب • وقالت زوجته وهي تنتحب :

ـ الله معك • أتمنى أن تعلمك هذه الحادثة كيف يجب أن تتجنب الفضول •

لكن نساء أخريات أخذن يشجعنها ويصبرنها •

* * *

المركز الصحي

توقف الرجال الثلاثة ، امام العربة التي تحمل المريض ، عربة يجرها حمار ، غير مغطاة . ووراء الرجال الثلاثة أمرأتان وطفل صغير ، اختلطت دموعهم مع ماء المطر المندلق من السماء في غير عنف . المرأتان تجهشان والطفل الصغير يرتعد من البرد ، والحمار هو الآخر يحاول أ ن ينفض الماء عن اذنيه المرتخيتين .

قال الرجل الاول :

ـ نحمله على أكتافنا .

ـ كيف ذلك ؟ أنه يتألم .

قال الثالث :

ـ نحاول ان نجر الحمار وسط المستنقع .

قال الاول :

ـ اعرف هذا الحمار البليد . لايمكنه أن يجتاز المستنقع حتى ولو قتلناه بالضرب . فكر الرجال الثلاثة في صمت قليلا . وبدأ لهم المركز الصحي بعيدا وغاصا في الوحل والماء الكدر . اما بابه فمغلق . كانت هناك نافذة واحدة مفتوحة قليلا يمر أمامها رأس بشري من

دون شك ،انه المركز الصحي الوحيد في المنطقة لحوالي عشرة آلاف من سكان القرى والدواوير • لذلك فالوصول اليه يعتبر رحلة ابدية لانهايـة لهـا •

قال الرجل الاول :

ـ حاولا أن تساعداني • افرجا ساقيه وأنـا سأضعه علـى ظهري •

أخذت الامطار تتهاطل بقوة هذه المرة ، والريح تلوي أعناق بعض الاشجار الطرية القصيرة حتى لتكاد تتكسر • وكان يسمع للمريض انين واه وضعيف تحت قطعة المشمع التي غطوه بها • وعندما يسمع له أنين ، يمعن الطفل في ذرف الدموع ، ويتشبـث بقوة وعنف بثوب أمه القذر •

قال الطفل :

ـ هل سيموت يا أمي ؟

لكن الام لم تجبه • بل مدت يدها الى المشمع ، وجذبت بعض أطرافه لتسويه فوق جسد المريض ، وعندما فعلت ذلك اندلقت بعض المياه التي تجمعت في بعض ثنايا قطعة المشمع •

أخذ الرجل الاول يستعيد نفسا عميقا كان قد فقده • وأعطى ظهره للعربة• وقام الاثنان الاخران بنقل المريض الى ظهر الرجل• شعر هذا الاخير بالثقل فتشجع وصمد أكثر وانحبست انفاسه مرة أخرى•أما المرأتان فقد اهتمتا بتسوية المشمع علىرأس المريض•

أخذت المجموعة تجتاز المستنقع وقد رفعت أثوابها حتى مـا

فوق الركبتين بكثير ٠ أما المرأتان فلم ترفعا ثوبهما أكثر من حدود الركبتين ، وسمحتا لثيابهما ، بالابتلال ٠ لانهما كلما حاولتا أن ترفعا الثوب أكثر ، ظهرت أفخاذهما الغليظة المشعرة٠ وكاد جسد المريض أن ينزلق عن ظهر الرجل ، فتداركته الايدي وأعادت توازنه ٠

قال الرجل الثاني :

ـ اتمنى ان يكون المرضون حاضرون ٠

تساءل الثاني :

ـ لا ادري كيف يجتازون هذا المستنقع للوصول الى المركز ٠
ـ انهم لايجتازون المستنقع ، بل يسكنون في المركز ٠

وازدادت الأمطار فلم ينتبه أحد لذلك ،كان المريض وحده هو الذي يستجيب لهذه الظاهرة الطبيعية بانات متوالية ورتيبة ٠

وعندما اقتربوا من المركز الصحي ، سمعوا أغنية منبعثة من مذياع فشعروا بالامل ٠ المرضون موجودون ٠ وقالت أمرأة :

ـ سوف يعالجونه وسوف يشفى ٠

وقال الرجل الثاني وهو يفتش في جيب سرواله :
ـ يجب أن ندفع لهم رشوة حتى يعتنوا به أكثر ٠
ـ صحيح ٠

ثم صعدوا بعض درجات قليلة، وتجمعوا فوق مصطبة عالية٠ وأحس الرجل الذي يحمل المريض باعياء ٠ أدار ظهره جهة حائط

المركز ، ثم حاول أن ينزل برفق وأناة • لكن قواه لم تسعفه فسقط جسد المريض مثل كيس على الارض الصلبة• أصدر أنيناً مرتفعا وصمت • فانحنت عليه المرأتان وحاولتا أن تسنداه على الجدار •

أخذ الرجل الثاني يطرق الباب الحديدي البارد بقبضة يده • ولم يأته الجواب الا بعد لحظات •

أطلت ممرضة قصيرة القامة برأسها ، ثم خرجت لتلقي نظرة على المريض :

ـ ماذا بـــه ؟

ـ لاندري •

أجاب الرجل الثالث :

ـ أنه يشكو من الوجع ومن الحمى •

وقالت الممرضة القصيرة القامة :

ـ احملوه واتبعوني•ثم ان الطبيب لايأتي الا يوم الخميس•

حمل جسد المريض بالطريقة التي حمل بها في المرة الاولى • وعندما اصبحوا داخل حجرة ذات مقاعد طويلة حاولوا أن جلسوه لكنه لم يقو على ذلك • غابت عنهم الممرضة داخل حجرة أخرى • ولم يكن في المصحة سوى هي وممرض واحد فقط • وعندما رآهـا الممرض قال وهو ممدد في سريره :

ـ ميت آخر ؟ !

ـ ربمـا •

ـ متى ننهي طريقة العيش هذه ؟

ـ عندما نتزوج ٠

ـ أنت تحلمين كثيرا ٠ لقد نفونا هنا ، في هذه المنطقة ٠ أنـ أحلم بالعودة الى مدينتي ٠

ـ واذ ذاك سنتزوج ٠

ـ أنت لا تفكرين سوى في الزواج ٠

ـ و فيأي شيء يمكن لامرأة مثلي أن تفكر ٠

ـ اذهبي وأعطي لذلك الكلب اقراصا قبل أن يموت ٠

لم يكن ينظـر اليها ٠ بـل كان يدخـن في تأمل ، وينظر الى الامطار تتساقط وتصدم زجاج النافذة ٠ خرجت الممرضة ونظرت في وجه المريض ، جست نبضه ووضعت يدها على جبهته ، لـم تخمن مرضه ٠ وافتعلت بعض الجدية والعناية ٠ عادت الى غرفة خلفية وجلبت بعض ادوات الحقن ٠ ثم قالت :

ـ لاتخافوا ٠ سيشفى ٠

لفت المجموعة المريض في قطعة المشمع ٠ وحملوه الى الخارج٠ كان الحمار يبدو من بعيد وهو يهز بعض قوائمه ويحرك أذنيـه ورأسه ٠رفع الرجال والنساء ثيابهم الى ما فوق الركبتين، وأخذوا يخوضون في الماء العكر ، أما الممرضة فقد التحقت بالمرض ، وتزاحمت معه في الفراش :

ـ اني أملك بعض الحلي ٠ سأبيعها وسنتزوج ٠

ـ هل مللت الاجهاض ؟

ـ الى متى سنعيش هكذا ؟

ـ هات العشرة دراهم التي أخذتها منهم ٠

ـ لم آخذ سوى خمسة ٠ اقسم لك ٠

وأخرجت ورقة من فئة الخمسة دراهم وقدمتها له ٠ ثم سمعا صرخة قوية تلتها صرخات اخرى ٠ قامت المرضة واطلت من النافذة فرأت امرأة تلطم وجهها وتلطشه بالماء تحت المطر ٠ ورأت رجلين يبدوان كما لو فقدا وعيهما وهما يتمرغان في ماء المستنقع ، عادت مرتعبة الى وسط الغرفة ٠

ـ ناري ! يمكن أنه قد مات ٠

قام المرض من مكانت وذهب الى النافذة ٠ وأخذ يراقب المشهد تحت المطر ٠ احس بشعور غريب ٠ واخذ يجوب الغرفة بخطوات بطيئة وعيناه تحدقان مرة في الارض ، ومرة في عيني المرضة الزائغتين ٠ لكنه لم يكن يستطيع الكلام ٠

* * *

اتحاد الكتاب العرب
Union des Ecrivains Arabes
Damas دمشق

منشورات اتحاد الكتاب العرب

لعـام ١٩٧٨

اسـم الكتاب	المادة	المؤلف	السعر
ـ كتب انصفت حضارتنا	دراسة	فريد جحـا	٦٠٠
ـ فن الرجل الصغير في القصة السورية	دراسة	احمد محمد عطية	٦٠٠
ـ النكتة الصهيونية	دراسة	محمد أبو خضور	٣٠٠
ـ الحصار	شعر	علي سليمان	٣٠٠
ـ بواكير التاليف المسرحي في سورية	دراسة	عادل أبو شنب	٦٠٠
ـ اعلانات الموت والحرية	شعر	بندر عبد الحميد	٣٠٠
ـ موت الحلزون	قصص	وليد اخلاصي	٥٠٠
ـ لا تنظر من ثقب الباب	مسرحية	فرحان بلبل	٣٠٠
ـ اغنية المعول	قصص اطفال	نصر الدين البحرة	٣٠٠
ـ هدية عيد الام	قصص اطفال	مراد السباعي	٤٠٠
ـ دمر عاشقا	مسرحية شعرية	خالد محي الدين البرادعي	٤٠٠
ـ أعود الان من موتي	شعر	زهير غانم	٤٠٠
ـ لعبة القرية	رواية	محمد جلال	٦٠٠
ـ الحان الغروب	شعر	الياس قنصل	٤٠٠
ـ مطارحات في فن القول	دراسة	محي الدين صبحي	٦٠٠

منشورات اتحاد الكتاب العرب

لعـام ١٩٧٨

اسـم الكتاب	المادة	المؤلف	السعر
ـ لعينيك ما أشتهي أن يكون شعر		وفيق خنسة	٣٠٠
ـ الصخرة	رواية	عبد النبي حجازي	٥٠٠
ـ أنوي وأسميك اتجاها	شعر	سهيل ابراهيم	٣٠٠
ـ الضوء من الباب	قصص	زكريا شريقي	٣٥٠
ـ نقد الشعر القومي	دراسة	د. عمر دقاق	٦٠٠
ـ الميناء القديم	رواية	محمود صغيري	٦٠٠
ـ تاريخ جرح	قصص	فؤاد الشايب	٤٠٠
ـ أمطار لوجه العاشق	شعر	حسين حموي	٣٠٠
ـ صخب طيور مشاكسة	شعر	نيوسفسكي	٤٠٠
ـ المـــــــر	رواية	ياسين رفاعية	٤٠٠
ـ بين التخلف والحضارة	دراسة	حافظ الجمالي	٨٠٠
ـ سياسة في المسرح	دراسة	علي عقلة عرسان	٨٠٠
ـ معروف الرصافي	دراسة	ابراهيم كيلاني	٦٠٠
ـ الصيادون ولعبة الموت	قصص	قمر كيلاني	٥٠٠
ـ عيون تحت الليل	قصص	مبارك الدريبي	٤٠٠
ـ جرائم دون كيشوت	قصص	هاني الراهب	٥٠٠

منشورات اتحاد الكتاب العرب

لعام ١٩٧٨

اسم الكتاب	المادة	المؤلف	السعر
ـ النقيض	رواية	د. افنان القاسم	٥٠٠
ـ الكتابة في دفتر دمشق	شعر	اسماعيل عامود	٣٠٠
ـ الغزل العذري	دراسة	يوسف اليوسف	٥٠٠
ـ أيها الزمان الضيق أيتها الارض الواسعة	شعر	نزيه أبو عفش	٤٠٠
ـ عراف الشريعة والضفاف	شعر	أحمد مفلح	٣٠٠
ـ ان الادب كان مسؤولا	دراسة	جلال فاروق الشريف	٤٠٠
ـ كوكب الاحلام	قصص أطفال	طالب عمران	٣٠٠
ـ الاقوى	قصص	محمد زفزاف	٣٠٠

تحت الطبع

اسم الكتاب	المادة	المؤلف
ـ نقوش على حجر العصر	شعر	عبد الرحمن فخري
ـ الحقيقة والرواية	دراسة	منير صلاحي الاصبحي
ـ المبنـــــى	رواية	جمال جنيـــد
ـ مرايا ادبية	دراسة	سعد صائب
ـ حفنةتراب علىنهرجفجغ	رواية	وهيب سراي الدين
ـ الفلسفة تبحث	دراسة	ابراهيم الفاضل
ـ اقوى من السنين	قصص	وداد سكاكيني
ـ لماذا حزنت العصافير	قصص أطفال	نزار نجار
ـ سريال	شعر	أورخان ميسر
ـ مسرح الدوائر المغلقة	دراسة	حنا عبود
ـ للكلمات جهات تقصدها عمدا	شعر	د. أحمد سليمان الاحمد

صدر للمؤلف

* ـ حوار في ليل متأخر (قصص) وزارة الثقافة والارشاد القومي ـ دمشق
* ـ المرأة والوردة (رواية) غاليري ـ بيروت
* ـ أرصفة وجدران (رواية) وزارة الاعلام ـ بغداد
* ـ بيوت واطئة (قصص) دار النشر المغربية ـ الدار البيضاء
* 13 *Poéts Marocains - Avec Alain Lebean Traces - France .*

سـعر الكتاب

سورية ٣٠٠ ق.س ـ **لبنان** ٣٠٠ ق.ل ـ **الكويت** ٤٠٠ فلس ـ **الاردن** ٣٠٠ فلس ـ **عدن** ٥٠٠ فلس ـ **قطر** ٤ ريالات ـ **البحرين** ٥٠٠ فلس ـ **السعودية** ٤ ريالات ـ **أبو ظبي** ٥ دراهم ـ **دبي** ٥ دراهم ـ **ليبيا** ٥٠٠ مليم ـ **تونس** ٤٠٠ مليم ـ **المغرب** ٥ دراهم ـ **الجزائر** ٥ دنانير ـ **السودان** ٥٠٠ مليم ـ **العراق** ٣٠٠ فلس ـ **مصر العربيـة** ٣٠٠ مليم ـ **الخليج العربي** ٤ دراهم .

طبـــع في :
مطبعة الكاتب العربي
دمشق ــ شارع خالد بن الوليد
بناء الدبسي ــ مقسم ٤٥

١٥٠٠ ــ ١٢ ــ ١٩٧٨

السعر ٣ ليرات

مطبعة الكاتب العربي ــ دمشق